

عودة الفراشات



اسم الكتاب	:	عودة الفراشات
تأليف	:	عبد الباقي يوسف
التصنيف	:	رواية للأطفال والناشئة
مراجعة لغوية	:	راما الخطيب
إخراج فني	:	أسماء أبو المجد
تصميم الغلاف	:	أحمد وهبة
رقم الإيداع	:	2024/15523
الترقيم الدولي	:	978-977-8769-53-1
الطبعة	:	الأولى 2024
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع

للتواصل معنا



scribe20199@gmail.com



+201005079256



+201099727510



دار اسكرايب للنشر والتوزيع



اسكرايب
لنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

عودة الفراشات

رواية للأطفال

تأليف

عبد الباقي يوسف



اسكرايب
للنشر والتوزيع



الفصل الأول الصيف

مسك الإنسان

مع انبثاق خيوط الشمس الأولى من خاصرة السماء، استفاق الجُدُّ العجوز رِيَّان كعادته كل يومٍ من نومه المُتَقَطِّع كما لو أنه على موعدٍ للاستيقاظ في هذا الوقت المبكر جداً.

لبث مستلقياً على ظهره على الإسفنجية المطروحة على الأرض، وقد تغطَّى إلى نصف جسده بملاءة بيضاء مصنوعة من الكتَّان. حطَّت ذُبَابَةٌ على خَدِّه، مشت نحو الفَم، نَشَّها بظاهر كَفِّه، تقلَّب على جنبه الأيمن، ثم على جنبه الأيسر. أدرك بأنَّه لم يعد قادراً على استئناف نومه، أزاح الملاءة عن جسده، نهض بسنواته التسعين، قعدَ في الفراش، رمق النتوءات المختلفة الأحجام المنتشرة على الجدران بسبب الطلاء العتيق. مدَّ يده المرتجفة إلى العُكَّاز الذي كان ملقى على الحصيرة بجانبه، اتَّكأ عليه وخَطَا إلى الباب الخارجي تاركاً سعاله المتحشرج ينتدح في أرجاء البيت.

فتح الباب، راوده شعورٌ بأن البيت لَفَظَه من جوفه إلى الشارع، انتصبَت به قدماه على الرصيف، أولى ظهره المنحني إلى الباب الحديدي الصدئ تاركاً أنظاره تمتدَّ إلى ناصية الشارع الطويل شطر الجهة اليمنى تارةً، وتارةً شطر الجهة اليسرى لعلَّه يلمح كائناً بشرياً، أيَّ كائن بشري مهما كان شكله، أو عمره، أو لونه، المهم أن يكون بشراً مثله.

رَنَا إلى البيوت الصامتة، إلى الأبواب المفتوحة على مصراعها، تذكر جواره الذين كانوا يقطنونها، روائح الطعام التي كانت تزف منها إلى الشارع، صيحات الرجال، زعيق النساء، نشيج الأطفال، أصدااء سقوط بعض الأواني الزجاجية من الأيدي وكسرها، ارتطام بعض الأواني المعدنية ببعضها بعضاً.

استردت ذاكرته كل تلك الملامح، القامات، الهيئات التي كانت تلج وتطلع من تلك الأبواب، أصوات محرّكات سيّارات أمام أرصفة البيوت، درّاجات هوائية، درّاجات نارية ذوات عجلتين، وذوات ثلاث عجلات تمضي في الشارع. كل ذلك كان يشاهده ويعيشه وهو يخرج بشكل يومي في هذا الوقت من البيت ويذهب إلى مخبزه، يرى العمّال وقد فتحوا المخبز وباشروا في تحضير العجين. يتوافد سكّان الحي رجالاً، نساءً، أطفالاً، يتزاحمون على نافذة المخبز، يرصفون نقودهم الورقية خلف بعضها في رتل على المصطبة، تفوح رائحة أرغفة الخبز الحارة التي يُخرجها الخبّاز بالمطرحة الخشبية من حرارة النار ويلقيها إليه، يتناول النقود من الرتل، يعدّ الأرغفة المستديرة المنفوشة التي تُصدر البخار ويمدّها إلى الواقفين أمام النافذة. قال في سره: أين كل أولئك الجيران، الأقرباء، الأصدقاء، الضيوف، الغرباء.. هكذا بين عشية وضحاها انطوى كل شيء كما لو أنّه لم يكن ذات يوم.

نظر إلى أصناف وأشكال الحيوانات التي أخذت تخرج إلى الشارع من كل حَدٍ وَصَوْبٍ، إلى الطيور تُحَلِّقُ في السماء على شكل أسرابٍ ضخمةٍ، إلى العصافير تُزَقِّقُ على الأشجار والأسطح.

دهمه شعورٌ غريبٌ بأنَّه شبح إنسان وليس إنساناً، وأن العَيب فيه وليس في الواقع، فهو يعيش في قلب العاصمة التي كانت تَضجُّ بقامات وأصوات الناس. استأنف يقول: لماذا لا أكون قد تحوَّلتُ إلى شبح إنسان دون أن أدري؟. لكنَّه سرعان ما أبعدَ هذا الاحتمال لأنَّه يعيش في هذا البيت مع حفيده، حفيده الذي هو من لحمه ودمه، ولو كان شَبَحاً لَمَا استطاعَ هذا الحَفِيد أن يعيش معه.

تنفَّس الصعداء، استدار عائداً إلى الداخل بخيبةٍ جديدةٍ في مطلع صباحٍ جديد وهو يمسد على شعرات لحيته البيضاء الكتَّة الطويلة التي كادت تصل إلى سُرَّته، عطس عطسةً قويَّةً بشكلٍ مفاجئ كأنَّها خرجت من شخصٍ آخر وليس منهُ. يَمَمَ شطر الغرفة التي اعتاد حفيده أن ينام فيها، صرَّ باب الغرفة صريراً ممطوطاً عندما دفعه برفقٍ ودخل. كان الحفيد مُستغرقاً في لفائف نومٍ عميقٍ بعد ليلةٍ من السهر وهو يشرد بالفراشة التي تدخل غرفته بين وقتٍ وآخر، فيسمع صوتاً يهتف: رِيَّان.. رِيَّان.. وما جعله يشرد طويلاً هو أنَّه لا يسمع هذا النداء إلَّا إذا

رأى الفراشة. أحياناً يكون الوقتُ نهراً، وأحياناً ليلاً، وأحياناً عندما يراها ترفرف على دالية العنب في حديقة البيت، يجلس على الكرسي، يصوّب نظراته إليها فيترامى إلى سمعه ذات النداء. خطر له أن يُخبر جده بهذا النداء المجهول الذي يسمعه عندما يرى الفراشة. ذات مرّة كانا يجلسان في ظل الدالية، رأى الفراشة ترفرف بجناحيها فوق رأسيهما، عند ذاك تناهى إلى سمعه النداء: ريّان.. ريّان.. هبّ من الكرسي منتصباً على قدميه. قطّب الجدّ جبينه، رمقه بنظرة وقال: ما بك يا ريّان، لماذا نهضت عن الكرسي؟

صوّب نظراته إلى الفراشة وقال: ألم تسمع صوتاً يا جدّي؟ أصاخ سمعه للحظات وقال: لا.

عاد يجلس على الكرسي وهو ينظر إلى الفراشة البيضاء التي رفرقت وحطّت على غصنٍ من الدالية. بعد قليلٍ تناهى الصوت مرّةً أخرى: ريّان.. ريّان..

التفت يرمق جده وقال: هناك مَنْ يناديني يا جدّي. قال الجدّ: ربما هذا يبدو لك يا بُني.

قال: لا يا جدّي، أنا واثقٌ بأن صوتاً يُناديني: ريّان.. ريّان.. ولا أسمعه إلّا عندما أرى هذه الفراشة. نهضا إلى الفراشة كي يسمعاها عن قرب، لكنّها فرّتا بغتة وتوارتا عن أنظارهما.

وقف في الغرفة ينظر إلى حفيده المستغرق في النوم، ينظر إلى العرق الذي طفا على جبهته على شكل حبيبات. شفق به مُجدداً

لأنَّه ولد في ظروفٍ تعيسةٍ: لا أب، لا أم، لا أصدقاء، لا أقرباء، لا جوار، لا مدرسة، لا كهرباء، لا هاتف، لا مواصلات. تذكَّر كيف علَّمه الكلمات كلمةً كلمةً، حرفاً حرفاً، كيف علَّمه أن يقف على قدميه ويمشي، كيف كان يُطعمه الطعام، يغسله، يُبدِّل له ثيابه، يُحاول أن يُجيب على أسئلته الكثيرة التي كان يسألها وهو يكبر ويتعرع على يديه يوماً إثر يوم وشهراً إثر شهر، ها قد مضت السنوات وأصبح يافعاً في الخامسة عشرة من عمره.

جثا على ركبتيه بالقرب منه، مدَّ كفه بحنوٍّ، أزال شائبة كانت مستقرّةً بجانب أذنه، طبطب على وجهه، ناداه بنبراتٍ خافتةٍ: رِيَّان.. رِيَّان..

بعد لحظاتٍ أمسك بكفِّه، تلمَّس فيها سخونةً، رفعها إلى فمه، طبع عليها قبلةً، استأنف بذات النبرات: رِيَّان.. رِيَّان.. قم يا (جدو)، لعلنا نحظى اليوم برؤية إنسان، أو يكون حظُّنا جيِّداً فنلتقي بأكثر من شخصٍ، مثلاً نرى عائلةً تمشي في الشارع.

استفاق رِيَّان من نومه العميق على مضضٍ، رفع يده اليمنى وضع السبَّابة على عين والإبهام على الأخرى، فَرَكهما، ثم ما لبث أن بَرَكَ وسط الإسفنجة التي كان نائماً عليها وكلَّه رغبة في العودة إلى النوم. رأى جده متَّكئاً على العكَّاز قرب عتبة الباب بانتظاره، نهض تحت سطوة نعاسٍ شديد. مشى صوب جده بخطواتٍ متثاقلةٍ وهو يُزرر ياقة قميصه ويُقاوم رغبته

الشديدة في العودة إلى النوم، تتأب قائلًا: كل يومٍ نخرج يا جدِّي ولا نحظى برؤية أحدٍ إلَّا نادرًا.

- ما خروجنا يا بُنَي إلَّا لهذه النوادر، لم أعد قادرًا على مُقاومة شوقي لرؤية إنسان واحدٍ ولو لمرةٍ واحدةٍ في الشهر. بلع ريقه بصعوبةٍ وأردف يقول: مضى شهرٌ علينا عندما رأينا شخصاً آخر مرةً صدفةً في السوق الكبير وتحدّثنا معه، أتذكر؟ دسّ أصابعه بين ثنايا شعره الكثيف الأجدع، حكّ فروة رأسه وقال: نعم يا جدِّي أذكر، كان يركض في الشارع، فلحقته، وبين لحظةٍ وأخرى كان يلتفت إليّ ويُسارع في الركض، لكنني لم أتركه حتى وصلته، أمسكتُ بيده وأنا ألهث، كان يُريد أن يُبعدني عنه، توسّلتُ إليه حتى أقنعتَه كي يأتي معي، قلتُ له: أرجوك تعال، جدِّي بحاجةٍ ماسّةٍ إلى رؤيتك.

قال: دع يدك عني وسأجيء معك.

فتركتَه، نظر إليّ بريبٍ وابتعد عني قائلًا: هل أنت إنسان، أم أنّك مخلوقٌ آخر وتمظهرتَ بمظهر إنسان؟

قلت: أنا إنسان

قال: ما اسم جدّك؟

قلت: اسمه ريّان، وأنا أيضًا اسمي ريّان كنايةً باسمه.

قال: أين هو؟

قلتُ: قاعدٌ على الرصيف في ذاك الشارع.

كان خائفاً وهو يمشي معي ويحرص ألا يقترب مني ما أمكنه ذلك، ويُردّد على سمعي: هل أنتَ إنسان؟ وأقول له: نعم أنا إنسان، وجدّي إنسان.

قال جده: منذ ذاك اليوم ونحن نخرج كل صباح، نجوب شوارع العاصمة شارعاً شارعاً، زقاقاً زقاقاً ونرجع إلى البيت بخيبة دون أن نظفر برؤية إنسانٍ واحد.

قال حفيده: صحيح يا جدّي. ثم استدرَكَ قائلاً: لكن كيف عرفت أنّه قد مضى شهرٌ علينا دون أن نرى إنساناً؟

قال الجدُّ دون أن يلتفت إليه: وضعتُ ثلاثين خرزةً في علبة، كلّما تغيب الشمس أخرج منها واحدةً وأضعها على الأرض، وعندما تفرغ العلبة، أعرف بأن شهراً قد مضى، ثم أعيد الخرز مرّةً أخرى إلى العلبة.

دخل ريان إلى المطبخ، حطّ حبّات من العجّور، وحبّات من البندورة إلى جانب بعض التين والخوخ على سفرة. دخل جده، أكلا الطعام الذي جلباه البارحة من البستان الذي يقع في مساحة أرضٍ قرييةٍ من البيت. كان جده قد حرث تلك المساحة من الأرض التي لا تبعد عن بيته كثيراً عندما بقي لوحده مع حفيده في البيت، زرعها بالخضار والفاكهة، وعندما رأى انتشار الحيوانات في الشوارع، سوّر البُستان حتى لا تدخله الدواب. مع السنوات ملأه بخضار وفاكهة موسميّة، فبقي دائم الإنتاج على مدار الفصول. كان يوليه عنايته، يسقيه بين وقتٍ وآخر بالماء

الذي يأتي به من البئر الذي حفره في حديقة البيت عندما انقطعت المياه عن الصنابير. كان أحياناً يأتي بحفيده ويجلسان في ظلال بعض الأشجار، يتحدثان ويتناولان خضاراً وفاكهة.

كان ريان يُراقب كل هذه المتغيرات ويحفظها، فيعرف أوان الخضار والفاكهة في فصولها.

بعد تناول الطعام، اتكأ الجدُّ بيده اليمنى على عكازه العتيق المصنوع من خشب الخيزران ذو القبضة البلاستيكية السوداء، تابَّط الحفيدُ ذراعه اليسرى وبرحا البيت شطراً قلب العاصمة. في طريقهما ككل صباحٍ مرّاً بجانب المخبز، كرَّر جده ذات العبارة التي يُكرِّرها على مسمعه كل صباح وهو يتوقَّف بعكَّازَه للحظات: هذا المخبز كان مثل هذا الوقت يزدحم بالناس، كنتُ أنهمك في عدِّ الأرغفة الساخنة وأناولها إلى الأيدي التي كانت تمتدُّ إليّ من النافذة.

هزَّ ريان رأسه، رمق باب المخبز المُحكَّم، وكالعادة تخيل رغيف الخبز الذي لم يره، ولم يذقه قط. مضياً في الطرقات الخالية من الناس يجولان بأنظارهما بحثاً عن أيِّ كائن بشريٍّ: يا بُني ذات يومٍ من الأيام الخوالي، كان عدد سكَّان هذه العاصمة خمسة ملايين من البشر.

رفع حاجبيه وقال بدهشةٍ: خمسة ملايين يا جدِّي؟!

قال الجدُّ: كانت الأسواق تمتلئ بالبشر، أحياناً لم نكن نجد موطئ قدمٍ إلَّا بِشَقِّ الأنفُسِ في بعض الأزقة. كنتُ أرى أشكالاً وألواناً من الناس في الطرقات، كانوا يأتون إلينا من جميع مدن البلاد، من دولٍ أخرى، من قارّاتٍ أخرى، كانت شوارع عاصمتنا هذه تلمع من النظافة.

أزاح الجدُّ بعكازه أكواماً من الذهب ورزما من النقود الورقية عن الطريق، وغدا الحفيدُ يركلهما بقدميه ويمضيان بتؤدّة على أمل رؤية إنسانٍ ولو عن بُعد، أو من خلال نافذة بيتٍ ما، أو حتى يترامى إليهما صوتُ إنسانٍ من مكانٍ مجهولٍ: هذا الذهب الملقى في الطرقات، ما كُنّا نجده إلَّا في دكاكين الصاغة، كانوا يبيعونه بالغرام، لأنّه كان ثميناً يا (جدو)، وهذه الأوراق النقدية المتراكمة على بعضها في الطرقات كُنّا نستخدمها في بيع وشراء احتياجاتنا.

مع ارتفاع كتلة الشمس إلى كبد السماء، عجّت الطرقات والأزقة بأعدادٍ هائلةٍ من الدواب المختلفة بأشكالها وأحجامها تاركةً أصواتها تتعالى وتتداخل مع بعضها بعضاً وهما يمضيان ككائنَيْن مجهولين غير مرغوب بهما في هذا المكان: خوار البقر، ثغاء الأغنام، نقنقة الدجاج، نهيق الحُمير، صهيل الخيول، عرير الصراصير، نقيق الضفادع، صرير الفئران، مواء

القطط، نباح الكلاب، خترشة الجراد، كعيص السلاحف،
ضغيب الأرانب، رغاء الجمال، يعار الماعز.
تمضي حشود الدواب وهي ترمقهما يمشيان وسط الزحام،
يرتطمان ببعضها، وكالعادة لا يخلو الأمر من مشاكسة بعض
الحيوانات لهما.

- انظر جيداً يا ريان، انظر جيداً إلى مداخل الفروع
والطرقات، لا تنس أن تنظر جيداً إلى النوافذ عليك تلمح رأس
إنسان ما، عيناى ستأكلانني شوقاً لرؤية إنسان، أي إنسان
مهما كان صغيراً أو كبيراً، لم أعد قادراً على المقاومة.

هرع ريان بغتة كسهم طائش وسط أفواج البهائم تاركاً
صوته يدوي في أسمع جده: ذاك إنسان يا جدّي.. ذاك إنسان..
انشرح صدر جده، لبث ينظر إليه وهو يعدو مُسرِعاً حتى
توارى عن أنظاره في عرض الشارع الطويل، قال في قرارة
نفسه: هل سأرى إنساناً قبل أن أموت.. سأنظر إليه وأنظر،
وأنظر.. سأضمّه إلى صدري، أقبله، أشم رائحة الإنسان منه،
أتحدّث معه، أستمع لصوته. شهرٌ كاملٌ مضى دون أن أرى
أحداً سوى حفيدي، ومن كثرة ما أراه وأتحدّث معه لم أعد
أشعر بأنه شخصٌ منفصلٌ عني، بل أنه جزءٌ لم يتجزأ مني،
وأنني أمشي مع نفسي، أتحدّث مع نفسي، ويعود إليّ صدى
صوتي. بلع ريقه وأردف يقول: فوق كل هذا يشبهني كثيراً،
أصرّ أبوه أن يسمّيه باسمي، صرّت أرى نفسي فيه عندما كنتُ

بعمره، ينتابني شعورٌ بأنني عدتُ إلى تلك المرحلة من عمري،
أنظر إليه، يتحوّل وجهه إلى مرآةٍ أرى فيها طفولتي.

علقت أنظاره بلهفةٍ في بداية الشارع وهو واقفٌ بظهره
المحدودب يتكئ على عكّازه، تخيل بأنّ حفيده سيعود وبرفقته
إنسانٌ، كم سيكون المنظر بديعاً، منظر شخصين يمشيان معاً
ويتقدمان إليه.

في ذروة الترقّب الساخن، لاح له حفيده من بعيد، ركّز أنظاره
عليه جيّداً، عندما رآه وحيداً يمشي وسط حشود الدواب
المختلفة، هبط قلبه، أحسّ بنكسةٍ أصابته في العمق، خمدت في
صدره مشاعر الفرح التي كانت قد غمرته لحظة جريه المباحة.
دنا إليه ريان بخطى متثاقلة وقد امتعنت قسماً وجهه،
وقطرات العرق تسيل من فوديه، دنا والجد يرمقه منتظراً ما
سيخرج من فمه، بل لو كان الأمر بيده، لسحب الكلمات من
فمه سحباً: لم يكن إنساناً يا جدّي، كان قرداً. خرجت الكلمات
ببرودٍ من فمه الجاف.

- هل نظرتُ إليه جيداً يا بُني ربما التبسَت عليك الأمور؟
- نظرتُ إليه جيداً يا جدّي، لو كان إنساناً لما تركته يفلت
منّي، لأتيتُ به وربما أقنعناه كي يأتي ويعيش معنا.
- هذه أمنيّتي يا ريان، هل سيأتي يومٌ ويعيش معنا إنسانٌ
مثلنا، يكلمنا ونكلّمه، لقد ذكّرتني بذاك اليوم الذي أتيت فيه
بذاك الرجل.

- تقصد الرجل الذي أتينا به واختفى فجأةً يا جدِّي؟. قالها
وقد تقافرت إلى مَخِيلَتِه صورة سُليمان بقامته الفارعة وعَيْنِيهِ
الصغيرَتَيْن ورقبته الطويلة التي يتدلَّى عليها رأسه يمنةً ويسرةً
عندما يمشي.

- نعم أقصده، رغم أنَّه لم يُخبرنا باسمه، لكنني أطلقتُ عليه
اسم سُليمان، كان ظَريفًا ويؤنسنا. خلال وجوده في البيت لم
نعد نخرج كل صباح لنبحث عَن إنسانٍ نتحدَّث معه ويتحدَّث
معنا.

- كان ينام ويترك عَيْنِيهِ مفتوحَتَيْن يا جدِّي!
- نعم يا رِيَّان أنا أيضاً لاحظتُ عليه ذلك.
- أمضينا معه وقتاً جميلاً، كان يُداعبني وأداعبه، لكن كيف
أسميته بهذا الاسم يا جدِّي؟

- عندما أتينا به إلى البيت، حدَّقتُ في وجهه ملياً، خَمَنْتُ عمره
في العشرين، لا أعرف كيف قفزَ اسم سُليمان إلى مَخِيلَتِي،
كأنني قرأت الاسم على جبهته، فنطق لساني: سُليمان.. جفلَ
عندما سمع الاسم، قطَّبَ حاجبِيهِ، رمقني بنظراتٍ نفاذة، ولم
يتكلَّم. كان بودِّي أن يمكث معنا، لكن للأسف يا بُنَي لم يطل به
البقاء عندنا أكثر من شهرٍ حتى استفقنا في ذاك اليوم المشؤوم،
ولا نعرف كيف خرج من البيت في الليل وتركنا.

- سأعرفه يا جدِّي إذا رأيته، سأقول له: سُليمان. وسوف
يأتي وينظر إليَّ عَن قُرب كما كان يفعل ويقول لي: بخ.. بخ..



أجل يا جدّي كم كان ظريفاً ومؤنساً، كنتُ أضحك وأتهرب منه
ويضحك وهو يُطاردني من غرفةٍ إلى غرفةٍ، يُدغدغني من تحت
إبطي ويقول: بخ.. بخ..
- عندما كنتُ أراكما تتداعبان، كان صدري ينشرح وأنا أنظر
إليكما وأنسى كل هموم الدنيا.

تنهيدة عميقة

لوى الجذُّ سبَّابته، مسح بأطرافها حبيبات عرقٍ تراكمت على مساحة جبهته، أنفضها بعزمٍ إلى الأرض. اتَّجه إلى شمسيَّة مصنوعة من الألنيوم لدكانٍ قريبٍ منه يتَّقِي بها من أوار الشمس، قعدَ في ظلِّها على كومةٍ من سلاسل الذهب، قال وعيناه تضيقان وتتسعان كأنه ينظر إلى ضوء: هذا الصيف شديد الحرارة يا بُني أكاد أحترق من شدَّة الحرِّ.

قعد الحفيدُ على كومةٍ ذَهَبٍ أُخْرَى بمحاذاة كتفٍ إلى كتف وقال: كان الشتاء أيضاً شديداً البرودة يا جدِّي، أتذكر يوم تزلقت على الجليد في ذاك الصباح ووقعت على الأرض؟

ابتسم الجدُّ ابتسامة أظهرت عن لثَّةٍ تساقطت عنها بعض الأسنان الأمامية السفلى وقال: نعم يا رِيَّان أذكر، عندما أتيت لي بحمارٍ، أركبتني عليه وأعدتني إلى البيت. فضحك رِيَّان، وضحك جده، تجلجلت بهما الضحكات وأحدهما ينظر في عيني الآخر. توقَّف تيسُّ، نظر إليهما، أصدر ثغاءً كما لو أنَّه شاركهما الضحك، أخذَ الجدُّ برأس حفيده، ضمَّه إلى صدره، مسح باليد الأخرى على شعره الأَجْعَد، شمَّه، أحسَّ بارتياحٍ وقال: كم أن رائحتك تنعشني يا رِيَّان رغم الغبار المتراكم عليك.

اكتنفهما صمتٌ، وبعد زهاء ربع ساعةٍ، ترامت نبرات خافتة من الجدِّ وقد أرخى ذقنه في باطن كفِّه اليسرى ورَفَعَ الإبهام إلى

عظمة الخدّ: كل هذه الدكاكين التي تراها مفتوحة ومكتظة بالحيوانات، كانت ذات يومٍ تعجُّ بقامات الناس.

مدّ يده إلى رزمة كبيرة من الأوراق النقدية، حدّق فيها، ثم طوّحها إلى بعيدٍ وقال: هذه الرزم الكبيرة من النقود لم نكن نجدها إلا نادراً يا بُني. لو استطاعت أن تتحدّث، لرَوّت لك كم أنّها تسبّبت في إراقة دماء الناس في عمليات سَطو الناس على بعضهم، هذه الأوراق كانت مغموسة بدماء الناس وقهرهم.

كان الحفيدُ يصغي وهو يوزّع نظراته على امتداد الشارع المليء برزم النقود وأكوام الذهب التي تعفّرت بروت الحيوانات وبولها.

مضى قطيعٌ كبيرٌ من الأبقار بجانبهما، قال الجد وسط تعالي وتداخل خوارها: هذه الأبقار يا بُني لم تكن بلا صاحب، كان الناس يُتاجرون بها وبكل شيء فيها.

كان الجدُّ يتحدّث بنبراتٍ واثقة كما لو أنّه يتحدّث إلى طفلٍ كامنٍ في أعماقه، وليس إلى حفيده الذي إلى جواره. وكان الحفيدُ يصغي إلى كل كلمة بإنصاتٍ وهو في غاية الدهشة، وينظر حواليه إلى أبواب الدكاكين المفتوحة، وأفواج الدواب المختلفة التي تجوب الشارع ذهاباً وإياباً، ثم إلى أسراب الطيور المختلفة بأحجامها في السماء.

استأنف الجدُّ يقول بعد صمتٍ لم يطل به: ذات يومٍ يا ريان كان عدد البشر على هذه الأرض يتجاوز ثمانية مليار إنسان.

جَحَظَ رِيَّانُ عَيْنَيْهِ مُسْتَعْرِباً الْعَدَدَ الضَّخْمَ، وَفِي لَحْظَةٍ انْتَابَهُ رَيْبٌ بِأَنَّ جَدَّهُ قَدْ أَخْطَأَ الرِّقْمَ فَقَالَ: هَلْ قَلْتُ: ثَمَانِيَةَ مِليَارٍ إِنْسَانٍ يَا جَدِّي؟

هَـزَّ الْجَدُّ رَأْسَهُ عَدَّةَ هَـزَّاتٍ إِلَى الْأَسْفَلِ وَقَالَ: أَجَلٌ يَا بُنَيَّ. أَرَدَفَ يَقُولُ: مَهْمَا كَانَ الشَّخْصُ بَعِيداً عَنْنا، كَانَ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ مَعَهُ وَنَرَاهُ وَنَرَانَا، كَانَتْ لَدَيْنَا أَجْهَـزَةٌ صَغِيرَةٌ يَا بُنَيَّ نَسَمِّيُهَا الْجَوَّالَ، كُنَّا نَسْتَخْذِمُهَا لِلتَّحَادُثِ مَعَ بَعْضِنَا مَهْمَا بَعَدَتْ بَيْنَنَا الْمَسَافَاتُ حَتَّى لَوْ كَانَ أَحَدُنَا فِي قَارَةٍ وَالْآخَرُ فِي قَارَةٍ أُخْرَى، كُنَّا نَرَى بَعْضِنَا بَعْضاً فِي شَاشَاتِ تِلْكَ الْأَجْهَـزَةِ الصَّغِيرَةِ كَمَا أَنْتَ وَأَنَا الْآنَ يَا بُنَيَّ.

أَطْلَقَ تَنْهِيدَةً عَمِيقَةً وَقَالَ: إِيْهِ.. إِيْهِ.. يَا لَتِلْكَ السَّنَوَاتِ.. كُنَّا إِذَا أَرَدْنَا التَّرْحَالَ إِلَى أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ.. بَعِيدَةٍ.. مَهْمَا كَانَتْ بَعِيدَةً.. رَكَبْنَا الطَّائِرَاتِ، وَحَلَّقْنَا بِهَا فِي السَّمَاءِ، كُنَّا نَقْطَعُ مِائَاتِ الْأَلْفِ مِنَ الْأَمْيَالِ فِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَةٍ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ يَا وَلَدِي كَانَتْ لَدَيْنَا سِيَّارَاتُ، وَقَطَارَاتُ، لَمْ نَكُنْ نَرَى ظِلَاماً دَامِماً، لِأَنَّ بَيْوتَنَا وَطَرَقَاتِنَا كَانَتْ مُنَارَةً بِالمَصَابِيحِ.

نَظَرَ رِيَّانُ إِلَى جَدِّهِ الَّذِي أَخَذَ وَجْهَهُ شَكْلاً غَرِيباً وَهُوَ مَا يَزَالُ يَضْغَطُ بِكَفِّهِ عَلَى ذَقْنِهِ: كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ يَا بُنَيَّ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَضْجُ بِأَفْوَاجِ النَّاسِ: الدَّرُوبُ، الطَّائِرَاتُ، السِّيَّارَاتُ، الدِّكَاكِينُ، الْأَسْوَاقُ، الْبَيْوتُ، الْأَحْيَاءُ، الْقُرَى، الْمُدُنُ، شَوَاطِئُ الْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ. أَيْنَمَا كُنَّا نَتَّجِهَ كُنَّا نَرَى اِزْدِحَامَ النَّاسِ.

الآن يا وَلَدِي.. الآن أصبحت رؤية إنسان حسرةً على أعيننا، أصبح سماع صوت إنسان حسرةً على أسمعنا، أصبحت رائحة إنسان حسرةً على أنوفنا. ثم صمتَ وصارا ينظران معاً إلى سيل البهائم الذي يتدفق، ويستمعان إلى أصواتها المتعالية المتداخلة مع بعضها.

لَاخِ سَرَبٌ ضَخْمٌ مِنْ طَيُورِ الْقَطَا، حَجَبَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ نَاشِراً أَصْدَاءَ قَطَقَطِهِ فِي الْمَكَانِ، ارْتَفَعَتْ أَنْظَارُهُمَا إِلَى السَّرَبِ مَطْوِلاً، قَالَ الْجَدُّ بَتْنَهِيدَةٍ عَمِيقَةٍ: كُلَّ حَيَوَانَاتِ اللَّهِ تَنْضُمُ إِلَى بَعْضِهَا وَيَتَكَاتَفُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ إِلَّا نَحْنُ الْبَشَرُ كَانَ يَأْتِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، يُفَتِّتُ بَعْضُنَا شَمْلَ بَعْضٍ.

هَؤُلاً رَأْسُهُ بِأَسْفٍ، خَبَطَ بِكَفِّهِ عَلَى جَبْهَتِهِ، أَرْدَفَ يَقُولُ: التَّبَسَّتْ عَلَيَّ الْأُمُورُ يَا وَلَدِي، لَمْ أَعُدْ أُسْتَوْعَبُ شَيْئاً مِمَّا وَقَعَ لَنَا، هَلْ كُنْتُ فِي حِلْمٍ وَصَحُوتٍ، أَمْ كُنْتُ فِي صَحْوٍ وَغَفُوتٍ؟!

أَطْلَقَ لُحْيَلْتَهُ الْعَنَانَ إِلَى تِلْكَ الْوَقَائِعِ الْغَابِرَةِ عِنْدَمَا كَانَتْ الْأَرْضُ تَزْدَحُمُ بِكُلِّ تِلْكَ الْأَعْدَادِ الْهَائِلَةِ مِنَ الْبَشَرِ: كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مُتَاحاً لَنَا يَا وَلَدِي، كُنَّا نَتَقَلَّبُ فِي رَغَدِ الْعَيْشِ، نَتَمَتَّعُ بِمُنْجَزَاتِنَا الَّتِي حَقَّقْنَاهَا، لَكِنْ فَجْأَةً.. أَجَلَ فَجْأَةً انْقَلَبَ كُلُّ شَيْءٍ رَأْساً عَلَى عَقْبٍ، لَا أَدْرِي مَا الَّذِي أَصَابَنَا، هَلْ أَصَابَتْنَا عَيْنٌ خَفِيَّةٌ شَرِيرَةٌ، شَيْءٌ غَرِيبٌ وَقَعَ عَلَيْنَا، بَثَّ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَنَا، أَصْبَحَ أَحَدُنَا

مُحتقناً من الآخر، يسعى ليلحق بالآخر أفدح الأضرار الماديّة والمعنويّة.

تمكّنت العداوة والبغضاء من مفاصلنا، من عظامنا، غدت تجري في عروقنا، صار بعضنا يقطع حتى الماء والكهرباء ورغيف الخبز عن بعض.

قال الحفيد: لماذا يا جدّي كنتم تفعلون ذلك ببعضكم؟! قال الجد: فكرتُ في ذلك طويلاً يا بُني حتى أوجعني رأسي دون أن أجد جواباً. رغم وجود كل وسائل الرفاهية في ذاك الزمن، حتى في برامج الحوارات في التلفاز، كانوا يتشاجرون فيما بينهم ويتصاربون. كان الناس يفرّون أفواجاً أفواجاً من بعضهم، فيقعوا في أيدي قراصنة البواخر الذين كانوا يسلبونهم نقودهم ويغرقونهم في مياه البحار، أو يختطفون بعضهم ويبيعونهم لتجار الأعضاء البشرية.

فوجئنا باختطاف الأطفال، كان الطفل يُختطف وهو نائم في بيته، لا أحد يعلم أين يذهب. كادت بلادنا تخلو من الأطفال، عشرات الآلاف من الأطفال اختفوا دون أن يعرف أحد لهم مكاناً، استنفرت كل أجهزة الأمن دون أن يعثروا ولو على طفل واحد من كل تلك الأعداد الهائلة من الأطفال. كان من بينهم أطفال كبار المسؤولين الذين استنفروا وبذلوا كل ما يمكن لهم أن يبذلونه دون أن يعلموا شيئاً عن أطفالهم.



الآن يا بُني تعود بي ذاكِرتي التي أَتَعَبْتَنِي إِلَى ذاك الزمن
المروع، إلى تلك الكوارث المُفْجِعة التي كان بعضُنا يلحقها
ببعض، عشتُ تداعياتها يوماً بعد يوم، وساعةً بعد ساعة. كان
زمناً عدوانياً بامتياز، كنتُ شاهداً عليه، لم يسلم مِن شرورنا
حتى الحيوان، والشجر، والهواء، والحجر.

الفيروس اللعين

رفع الجدّ كفه عن ذقنه، فَرَكَ شحمة أذنه اليمنى بيده اليسرى من خلف رأسه. وجّه نظرات ثاقبة إلى حفيده وهو يغبطه لأنّه لم يعيش اضطرابات ذاك الزّمن، وبذات الوقت يشفق به لأنّه يعيش وحيداً، وطفق يقول: أجل يا بُني كانت أياماً رهيبة تجرّعنا أهوالها لحظة بلحظة وساعةً بساعة، لا يمكن لذاكِرتي أن تنسى تلك الأهوال المروعة ما حييت.

خلال أيامٍ فقط يا ولدي مات من أبناء الأرض ما يزيد عن مليارٍ إنسان، كانت أكبر نكسة لقيها الإنسان عبر تاريخه، كان الناس في كل لحظة يتساقطون فجأةً على الأرض ينتفضون للحظات ويموتون دون أن يعرف أحدُ السبب. عاش العالمُ في نفيرٍ عام حتى تبَيّن للعلماء بأن فيروساً قاتلاً قد تسرّب إلى شبكة الاتّصالات الأرضية منها والخلويّة، وبات يتسرّب عبر ذبذبات الأصوات إلى أَسْماع المتّصلين مع بعضهم بعضاً فيصابون به، ويقضون خلال أسبوعٍ واحد. حينذاك أحرق الناسُ جميع هواتفهم الجوّالة والأرضية بعد أن قضت تلك الهواتف على نحو ربع سكّان الأرض خلال أشهرٍ معدودة.

اتّسعت عينا ريّان، فغر فاه، استطرد الجدّ العجوز يقول: ظننا بأن الأمر مضى وارتحنا بعد أن فتك الفيروس بِمَن فتك من بني البَشَر، لكننا بعد أُوّيامٍ قليلة فوجئنا بالناس نساءً ورجالاً بمختلف أعمارهم يتساقطون مرةً أخرى في الطرقات وهم

يلفظون أنفاسهم الأخيرة. صار الناس يتركون كل شيء ويفرون دون أن يعرفوا إلى أين، لم نكن نسمع سوى صرخات الاستغاثة. كانت شاحنات حكومية ضخمة تنتشل آلاف الجثث من الطرقات بواسطة جرّافات وتضعها في مقابر جماعية بعيداً عن حركة الناس، ولا تسمح لأحد بلمسها أو الاقتراب منها، لأن مجردّ اللمس كان ينقل الفيروس اللعين الذي كان قد تسرّب إلى أجهزة الحاسوب، وكذلك إلى كل جهاز على اتّصال بالإنترنت، فحطّم الناس أجهزتهم الالكترونية، وألغى الإنترنت بأقصى سرعة حتى هدأت الأمور.

كان يتحدّث وعلامات الذعر تطفح على سمات وجهه كما لو أن ذلك يحدث للتو: قلنا بأننا انتهينا من تهديد ذاك الفيروس اللعين، وقد أخذ معه ما أخذ ممّا تبقى من البشر، لكننا بعد أيام فوجئنا مرّة أخرى بسقوط الناس في البيوت وبعض الأماكن التي كانت فيها شاشات التلفاز، فكشف العلماء بأن ذاك الفيروس اللعين قد تسرّب إلى أجهزة التلفاز وغدا ينتقل إلى الإنسان من خلال عينيه عن طريق الذبذبات التي يبثّها التلفاز وهو مشغّل، فحطّم المتبقّون من الناس أجهزة التلفاز حفاظاً على أرواحهم.

هز ريان رأسه وقد تسمرت نظراته في فم جده، فاستأنف يقول: لم تطل بنا التهدة كثيراً يا بُني حتى فوجئنا بسقوط الناس مرّة أخرى على الأرض وهم ينتفضون للحظات

ويلفظون أنفاسهم الأخيرة. تبَيَّن للعلماء الذين كانوا في حالة استنفارٍ بأن الفيروس اللعين قد تسرَّبَ إلى أجهزة المذياع، وأن كل مَنْ يستمع إلى صوتٍ من مذياع، يُصاب بالفيروس، فحطَّم الناسُ أجهزتهم. عند ذاك قلنا بأننا تَخَلَّصنا من الفيروس الذي أخذَ ممَّا أخذ، وابتلعت الأرض كل تلك الأعداد الهائلة من الناس، لكن يبدو أن هذا الفيروس اللعين الذي تسلَّط علينا لم يدعنا بحالنا بعد أن قضى على ما يزيد من نصف سكَّان الأرض، والنصف المُتَبَقِّي كان يعيش في رعب، صار يخاف من كل شيء، لم يعد أحد يعرف من أين سيخرج له الفيروس. استأنف الجدُّ يقول بعد صمتٍ لم يطل به: رغم ذلك الحذر الشديد يا بُنَي فوجئنا مرَّةً أُخرى بسقوط الناس في السيارات والطائرات والقطارات وأماكن مختلفة. ازداد الناسُ ذعراً على ذعر، تبَيَّن بأن الفيروس اللعين قد تسرَّبَ إلى كل وسائط النقل التي تعمل بالمحروقات النفطية، وأن كل مَنْ يركبها يُصاب بالفيروس، فأغلقت كل محطات الوقود، وأُخرجت كل تلك الآليات من أماكن تجمُّعات الناس وأُحرقت في الصَّحارى والمحيطات، لم تبق طائرة ولا سيارة ولا قطار، ولا آلية تعمل بالنفط إلَّا وأُحرقت.

كل هذا ونحن نتجنَّب هذا الفيروس المتسلَّط على سلالة الجنس البشري، وقد قضى على كل تلك الأعداد الهائلة من البشر. أمست الأرض فارغةً من وطأة أقدام الناس، خَلَّت من

رائحة الجنس البشري، لم تنجح كل المحاولات الطبية من القضاء على هذا الفيروس اللعين الذي كان ينتقل من مكان إلى آخر ويفتك بما تبقى من الناس.

نظر بعيداً، استطرد يقول: اكتشفنا يا بُني في ذاك الوقت كم أننا ضُعفاء، ولسنا أقوىاء سوى على بعضنا البعض، كان الفيروس صغيراً، أصغر من أن يُرى وهو يمضي في إبادة الجنس البشري وسحقه من الكرة الأرضية. كل أسلحة الدمار الشاملة والأساطيل والترسانات القتالية وأعداد الجيوش الهائلة وقفت عاجزة ومشلولة أمام هذا الفيروس الأصغر من صغير الذي استطاع أن يسلب الإنسان كل مُنجزاته ويجعله يرتعد ويختبئ منه في الأقبية وتحت الأسرة.

أجل يا بُني، أصابنا الإحباط واليأس، لم نعد نعرف من أي شيء سوف يظهر لنا الفيروس. أصبحنا نحن الذين بقينا أحياء نخاف من أي شيء نلمسه، نخشى أن يكون الفيروس قد اختبأ فيه، كنّا نرتعب حتى من لقمة طعام نلتقمها، وشربة شراب نتجرّعها، وارتداء الثياب والأحذية، والنوم على الأسرة، والجلوس على الأرائك، ولمس كل شيء مصنوع من المعادن، أو الأوراق النقدية، صار الناس يقذفون أكوام الذهب ورزم النقود في الطرقات. تخلّصوا حتى من ساعات أياديهم، والساعات المعلّقة على الجدران، بتنا نفزع من كل شيء به معدن، حتى من مسمار في الحائط، من علاقة ثياب، نفزع من سماع الأصوات، كنّا

نخاف أن يتسرّب الفيروس من خلالها إلى أسماعنا، نفزع من رؤية الشارع خوفاً أن تقع أنظارنا على شيء يتسرّب الفيروس من خلاله إلى عيوننا. لم نهذاً لحظة واحدة، كنّا نشعر بأننا نركض طوال الليل والنهار، ولا نتوقف عن الركض حتى ونحن في بيوتنا.

كان أكبر طوفان شهدته الأرض بعد طوفان نوح، لكن هذه المرة جرفنا طوفان الفيروس الأصغر من صغير الذي لم يترك على سطح الأرض إلا عدّة أشخاص كما فعل طوفان نوح، استطاع هذا الفيروس أن يكتسح الجنس البشري، ويُعيد القلّة الناجية من البشر إلى العصر البدائي.

كان في كل مرّة يمهلنا عدّة أيّام أو نحو شهر حتى ينفذ إلينا عن طريق شيء آخر ويزيدنا فزعاً على فزع. فوجدنا مرّة أخرى بسقوط الناس في البيوت بشكل كبير، تبين هذه المرّة بأنّ الفيروس اللعين تسرّب إلى الغاز، وصار كل من تصله رائحة الغاز يتسرّب إليه الفيروس مع الرائحة عن طريق أنفه، فتخلّص الناس من أنابيب واسطوانات الغاز حفاظاً على أرواح ما تبقى منهم. كل واحد منا كان يشعر بضياغ، انقطعت الاتصالات فيما بيننا، لم يعد أحد يزور أحداً، كل شخص كان يعيش مع عائلته في عزلة ولا يعرف في أي لحظة يقتحم الفيروس أحدهم. كنّا نستسلم للفيروس يفعل بنا ما يشاء، يفتك بما يشاء حتى كادت الأرض تخلو من الناس ولم يبق في

كل مدينةٍ سوى العشرات من الناس يختبئون في بيوتهم، خوفاً من جبروت هذا الوباء الذي لم يقدر أحدٌ أن يكبح جماحه. صمتَ الجدّ، غدا يطأطئ رأسه بعض الوقت ثم ما برح أن قال: انظر جيداً يا بُني، ألم يظهر أحدٌ، تأقت عيناى لرؤية إنسان.

وقف الحفيدُ على قدَميه، جال بنظراته في كل الاتجاهات وقال: لا يا جدّي.. لا أحد البتة.

في تلك اللحظات، شنت مجموعة من بنات آوى هجوماً مُباغتاً عليهما وهي توجّه إليهما وحاءً متعالياً، طفقا يرميانها برزم النقود وقطع الذهب، ومع ارتفاع الوحاء، انضمت مجموعة أخرى إليها، اجتمعت حيوانات مختلفة غدت تتفرّج على المشهد وهي تصدر أصواتاً مُتداخلة مع بعضها البعض، تبدي حركات غريبة.

قال الحفيدُ بصوتٍ مُرتفعٍ علا الأصوات: لنذهب من هنا يا جدّي، هذه الحيوانات لن تتركنا بحالنا. قال الجدّ: يبدو ذلك يا بُني.

وقف الجدّ على قدَميه إلى جانب الحفيد، تقدّمت المجموعة إليهما أكثر وهي تُصعد وحاءها، أمسك الجدّ بقبضة عكّازه بشكل جيّد، نظر الحفيدُ إلى العروق البارزة في ظاهر كفّ جده المماسكة بقبضة العكّاز، تأبّط ذراعه الأخرى، هرولا بسرعة،

لاحقتهما مجموعةٌ من بنات آوى وهي توجّه إليهما وحاءً شديداً حتى خرجا من الشارع مُنهزمين.

وقفاً في ركنٍ يستردّان أنفاسهما وبينَ فَيْنَةٍ وأُخْرَى يُحدّقان في ناصية الشارع تحسّباً من شَنْ هجمةٍ جديدةٍ عليهما من بنات آوى. لم يطل بهما الوقوف كثيراً، دَلّفاً إلى شارعٍ طويلٍ آخرٍ من شوارع العاصِمة وغداً يمشيان كشَبَحَيْن.

- هل سيأتي يومٌ وأقعد فيه مع أشخاصٍ نتبادل أطراف الأحاديث، هل سيأتي يومٌ أرى فيه الناس يجوبون الشوارع جيئةً وزهاباً بدلاً من كل هذه الأفواجِ من الدواب؟

قال الجدُّ لنفسه بصوتٍ مسموعٍ وقد ارتسمت بسمَةُ أسفٍ على شفتيه المترهلتين. جال الحفيدُ بأنظاره إلى الطوابق العُلْيَا التي ضجّت بأشكالٍ وألوان الطيور، وإلى الطوابق السفلى التي ضجّت بأشكالٍ وألوان الحيوانات التي اتَّخذَتْها مسكناً لها.

تعالّت نبرات الجدِّ وهما يمضيان في عرض الشارع بين سيل الحيوانات الهادر: علينا ألا نفقد الأمل بأننا سوف نرى إنساناً بين كل هذه الحشود من الحيوانات التي انهالت علينا من كل حدبٍ وصوب.

تخيّل الحفيدُ مجموعةً من الأشخاص، يجلس معهم، تخيّل أشخاصاً يمشون في الطريق، يلقون عليه السلام، يلقي السلام عليهم، مضى به الخيال إلى عقدِ صداقةٍ حميميةٍ مع أحد



عودة الفرائشات

الأشخاص، يروي له عمّا يختلج في صدره، يذهب إلى بيته،
يسأل عنه. يأتي هو الآخر إلى بيته، يسأل عنه.

خنافس مضيئة

منذ أن وعيتُ على هذه الحياة لم أر سوى الحيوانات، لم أسمع سوى أصواتها في مساحات هذه العاصمة الكبيرة، أشعر بأنني غريبٌ في هذا العالم، غير مرغوب بي فيه. قال ذلك وأمسك برقبة خروفٍ بكلتا يديه، دنا بوجهه إلى وجه الخروف، صوّب نظراته إلى عينيه وقال: تحدّثْ معي، أسمعني، إنطق لماذا أنت صامت. مأمأ الخروف مأمأةً ممطوطة وهو يُبادلُه النظر. تركه وأمسك بعجلٍ، أمسك بحمارٍ، أمسك بديكٍ روميٍّ، غدا يمسك بما يقع تحت يديه من حيوانات ويقول: أريد أن أتحدّث مع أحدٍ يفهمني وأفهمه.

كان جده ينظر إليه والدموع تنهمر من مقلتيه مدراراً إلى تجاعيد وجهه، الحيرةُ تستبدُّ به، تكادُ تخنقه وهو لا يستطيع أن يُقدِّم لحفيده شيئاً أو يُخفِّف ولو قليلاً عنه.

توقّف الحفيد وسط حيوانات أحاطت به، وضع كفيه حول حافتي فمه على شكل بوقٍ وأطلق العنان لصوته المدوي: يا ناس.. هل من أحدٍ يسمع صوتي.. نريد أن نراكم.. نحن بحاجة إليكم.. دار حول نفسه عدّة دورات يصرخ بكل ما أوتي من صوت.

أخذ صوته يبح ويخفت رويداً رويداً، طلب منه جده أن يتوقّف.

كَانَتْ أَسْرَابُ الطَّيُورِ بِمُخْتَلَفِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا تَحْلُقُ فِي السَّمَاءِ وَتُغَطِّي طَوَاقِقَ الْأَبْنِيَةِ، وَحَشُودَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ تَمَلَأُ الطَّرِيقَاتِ وَالْبُيُوتِ وَكُلَّ رَكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعَاصِمَةِ الْكَبِيرَةِ، تَتَعَالَى أَصْوَاتُهَا وَتَتَدَاخَلُ مَعَ بَعْضِهَا مِنَ الْفَضَاءِ، مِنَ الْأَرْضِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا سِيْمَفُونِيَّةٌ نَشَازٌ.

قَالَ الْجَدُّ وَقَدْ نَالَ مِنْهُ الْإِرْهَاقُ: لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ مَا الَّذِي سَأَفْعَلُ يَا رِيَّانَ، كُلُّ مَا أَعْرِفُهُ أَنَّي أَحْتَرِقُ شَوْقًا لِرُؤْيَا إِنْسَانٍ، أَيِّ إِنْسَانٍ، لِسَمَاعِ صَوْتِهِ، لِلْمَشْيِ بِرَفْقَتِهِ، لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ مَعَهُ. أُرْدِفُ يَقُولُ بِنَامَةٍ: إِذَا كَانَ ذَلِكَ كَثِيرًا عَلَيَّ، فَقَطُّ أُرِيدُ أَنْ أَرَاهُ يَمْشِي فِي الشَّارِعِ وَلَوْ عَنْ بُعْدٍ، سَأَنْظُرُ إِلَى قَامَتِهِ وَأَشْعُرُ بِأَنْسٍ.

قَالَ الْحَفِيدُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِإِمْعَانٍ: أَنَا أَيْضًا لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ شَيْئًا، اعْذِرْنِي يَا جَدِّي أحياناً يَنْتَابِنِي شَعُورٌ بِأَنَّكَ تُبَالِغُ بِسَبَبِ تَقَدُّمِكَ فِي الشَّيْخُوخَةِ.

قَالَ: لَا يَا بُنِي، مَا أَزَالُ أَحْتَفِظُ بِقَوَايِ الْعَقْلِيَّةِ وَأُمَيِّزُ الْأَشْيَاءَ، أَحْفَظُ الْأَمَاكِنَ، أَتَذَكَّرُ الْأَحْدَاثَ، نَعَمْ يَا بُنِي أَنَا وَاثِقٌ بِأَنَّنا كُنَّا قَدْ تَسَلَّطْنَا عَلَى بَعْضِنَا الْبَعْضَ، كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نَفْنِي بَعْضُنَا بَعْضًا عَنْ سَطْحِ الْأَرْضِ. رُبِمَا بَطَرْنَا، رُبِمَا جُنِينَا، رُبِمَا.. رُبِمَا.. لَكِنْ أَذْكَرُ كُلَّ تِلْكَ التَّفَاصِيلِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَحْدُثُ أَمَامَ عَيْنِي الْآنَ، تَحْدُثُ بِكُلِّ ذَاكَ الْجَبَرُوتِ، وَكَيْفَ لَذَاكَرْتَنِي أَنْ تَنْسَاهُ.

- أَمَا كَانَ يَوْجَدُ مَنْ يَقُولُ لَكُمْ: أَلَا كَفُّوا عَنْ بَعْضِكُمُ الْبَعْضَ؟

- كان يوجد بيننا عُقلاء، يُقدِّمون لنا وسائل الرفاهية والراحة، لكن الذين كانوا يتولَّون زمام الأمور، كانوا يُسيئون استخدامها.

ذات يوم شفق أحد العُقلاء بالناس عندما رأهم يلقون المشقَّة في استخراج الحِجارة من الجبال، فصنَّع لهم الديناميت الذي أراحهم كثيراً من تلك المشقَّة. في لحظات كان جانب من الجبل يتفتَّت ويتحوَّل إلى أكوام من حجارة، كان البناء القديم يتفتَّت ليُشاد بدلاً عنه بناءً جديد. كان ذلك أمراً مذهلاً يا بُني قدَّمه ذاك الرجل للبشريَّة، لكن الذين كانوا يتولَّون زمام الأمور أفسدوا على الرجل سعادته بمنجزه عندما استخدموه لتفجير الأبنية على رؤوس أصحابها، وشنَّ الحروب، وتفخيخ السكك الحديدية ووسائل النقل والأسواق المزدحمة بالناس. عندما رأى هذه الويلات التي تسبَّب بها اختراعه الذي خرج من يده ولم يعد متحكِّماً به، أُصيب بذبحةٍ صَدْرِيَّةٍ وأمسى يُعاني تداعياتها الصحيَّة، ثم ماتَ قهراً في منزله بنزيفٍ دماغي.

سارَ الجدُّ إلى مدخل بناءٍ، قعد على أوَّل درج فوق الغُبار المُتراكم، قال وهو يربِّط شفَتَيْهِ الياستَيْن بلسانه: لم أعد قادراً على الوقوف يا (جدو)، أشعرُ بأنَّ عظامي تهشَّمت.

اعتراه شعورٌ كم أنَّه كان قاسياً، كم كان أنانياً عندما كان هاتفه يرنُّ، ولا يردُّ عليه، عندما كان باب بيته يُطرق، ولا يفتح، عندما كان يمضي في الشارع، ويرى شخصاً يعرفه، فيشيع

بنظره عنه، يتجنَّب فقط كي لا يلقي عليه السلام. عندما كان يُنادى عليه باسمه، يستأنف المشي دون أن يلتفت، يتظاهر بأنَّه لم يسمع. أوبخ نفسه بصمتٍ، تخيَّل كم أنَّه صفع أشخاصاً بيديه، كم ركلهم بقدميه، كم صرخ في وجوه أناس، كم تسبَّب في قهر أناس، كم كذب على أناس، كم كان جلفاً، متكبراً على الناس. أدرك بأنَّه رغم وجوده بين كل تلك الأعداد الهائلة من الأقرباء، من الجوار، من المعارف، من الغرباء، كان متقوقعاً على ذاته، كان محروماً من حميميَّة علاقته بالإنسان، كان مكبوتاً لم يعيش حياته على طلاقَتِها، لم يضحك ضحكاً حقيقياً من الأعماق. كان دوماً يحذَر الآخرين، يحسب حساباً لهم من تصرُّف تلقائيٍّ يبدر منه، ينال من مكانته. أدرك كم أنَّه كان مُبْهَماً، مُنْغَلِقاً على نفسه. سدَّد صفعَةً موجعةً على خده الأيمن، دوى صداها بغتةً، ثم صفعَةً على الأيسر، رمقه حفيده بتعجُّب، توالى بصفعاتٍ شديدة بكفِّيه معاً على خديِّه، أمسك الحفيد بيديه كي يمنعه، لكنَّه دفعه إلى الوراء، جرَّ شعر لحيته، شعر رأسه. تقدَّم الحفيد مرَّةً أُخرى، أمسك بكفِّيه وبكى بحرقَةٍ: كفى يا جدِّي.. كفى.. كفى.. كفى..

هدنَ شيئاً فشيئاً، اعتراه شعورٌ بأنَّ حجمه بات يضمحل، يضمحل حتى غداً مثل بعوضة، أسندَ رأسه إلى حائط الدَرَج، أغمض عينيه، بعد قليلٍ أصدر أنيناً، تنفَّس من أنفه في تناقل وغار في غفوة.

شفق به الحفيد، رمق بألم وجهه الذي حفرت عليه السنوات
آثارها، تركه في غفوته وراح يجوب الطرقات والأزقة، يوزّع
نظراته في كل الاتجاهات بحثاً عن قامة بشرية.

لاح له مُجمّع كبير، يمم الخطى شطره، وجده مكتظاً
بأصناف وأشكال الحيوانات، مدّ خطواته إلى الداخل، نظر إلى
الأبواب المفتوحة على مصراعيها، الأبواب المواربة، مضى في
تفرّعات المجمع الداخلية. ولج باباً كان مفتوحاً، وقعت عيناه
على قطيع من البغال منها واقفة ومنها مسترخية، وكان
الصمت يكتنفها حفاظاً على سكينة البغال المسترخية والنائمة.
راوده شعورٌ بأنّها مستأنسة مع بعضها البعض. انتبه إلى بغلٍ
كان يصوب نظراته إليه مذ أن دخل، دنا إليه، تشابكت
أنظارهما. قالت أنظار البغل لأنظاره: لماذا أقحمت علينا أنسنا،
هيا اخرج من هذا المكان.

قهقرت به قدماه وأنظار البغل تلاحقه حتى لفظه الباب،
سار في ردهة المجمع، رأى باباً مفتوحاً على مصراعيه، مدّ
خطواته إلى الداخل، وقعت عيناه على فوجٍ من أبقارٍ سوداء منها
واقفة ومنها مستلقية، منها لوحدها، ومنها على شكل
مجموعاتٍ صغيرة. نظرت إليه بقرّة، قالت أنظارها لأنظاره:
أنت غير مرغوب بك بيننا، ما الذي أتى بك إلى هنا، اذهب
واستأنس مع جماعتك.

آبَتْ به خطواته إلى الخلف وأنظار البقرة متسمة فيه وهي تومئ له برأسها كي يخرج.

ألفى نفسه في عالم حميميٍّ غريبٍ عليه وهو يلج أبواب وردهات المجمع الكبير الذي اتخذ شكل مدينة مغلقة أهلة بأصناف الحيوانات: حمير مع بعضها على شكل مجموعات، أغنام مع بعضها، خيولٌ مع بعضها، قطط مع بعضها، أرانب مع بعضها، فئران مع بعضها، كلابٌ مع بعضها.

رأى دَرَجاً، دنا إليه ومدَّ يده إلى الدرايزين، صعد الدَرَج إلى الطابق العلوي من المجمع وهو في ذروة الدهول، رأى نفسه في عالمٍ آخر وسط ألوان طيورٍ مختلفة ملأت المكان: على الجدران، على حواف النوافذ، على السقف، على مساحات الأرض. امتدَّت به خطواته نحو بابٍ موارب، مدَّ رأسه وما لبث أن دسَّ جسده إلى الداخل، رأى فوجاً من الغربان، كانت مجموعة مؤلَّفة من خمسة غربان تنعق، وبقيّة الغربان صامتة تستمع إليها.

مضى إلى بابٍ آخر، وقع بصره على فوجٍ من الحجلان، غدا يتجول بين الأبواب وأفواج الطيور: حمام، لقالق، عصافير، أبوام، قطا، صقور، بلابل. مجموعات مجموعات مع بعضها، لكل مجموعة طقوسها المختلفة عَن الأُخرى ورائحتها المختلفة عَن الأُخرى.

في ذروة تجواله ودهشته، فوجئ بعتمة خفيفة تزحف وتفتش الردهات، والضوء يخبو، أدرك بأن النهار قد مضى،

وأن الليل بدأ يرخي سدوله. تجاوزت به خطواته بالنزول إلى الطابق السفلي وهو يكابد زحام الحيوانات، غدا يبحث عن مخرج دون أن يهتدي إليه والردهات تزداد ظلاماً لحظة إثر لحظة.

تذكر للتو جده الذي تركه غافياً على درج البناء، دار بخطى مضطربة في تفرعات المجمع الكبير بحثاً عن باب الخروج كي يؤوب إلى جده، لكن العتمة خيمت على المكان بشكل كامل دون أن يتمكن من الاهتداء إلى الباب. توقفت إذ ذاك الأصوات التي كانت تنتشر وتتعالى، ساد صمتٌ كما لو أن المكان لا أحد فيه.

خارجاً قاعداً في قلب العتمة بركبتين مصطكّتين، ضم ذراعيه إلى صدره وهو يرتعد. راوده شعورٌ بأن العتمة لن تطول، تذكر جلوسه مع جده قبل عدة سنوات في الحديقة. يومها قال له: النهار طويلٌ كثيراً يا جدي كما لو أنه لن ينتهي.

قال جده: لأننا الآن في فصل الصيف يا بُني، وهذه هي أطول نهارات السنة.

قال: لذلك فإن الليالي قصيرة جداً.

قال: نعم يا بُني، وهذه هي أقصر ليالي السنة. ثم شرح له بأن الأمر ينعكس تماماً في الشتاء، فيكون النهار فيه أقصر نهارات السنة، كما يكون الليل فيه أطول ليالي السنة. ويتساوى طول النهار والليل في الربيع، وكذلك في الخريف: في هذين الفصلين يا ريان يكون الجو أيضاً معتدلاً على عكس الصيف

الذي تكون فيه الحرارة شديدة، والشتاء الذي يكون فيه البرد قارساً.

جَلَّ بغتة عندما رأى أعداداً من الخنافس المضيئة تُحَلِّق في مساحات العتمة وتنقُر على أوتار الصمت بخفيفها. تتبّعها بنظراته وهي تُحَلِّق في كل الاتجاهات كما لو أنّها فرقة من حُرّاس الليل أتت لتستطلع أوضاع النائمين. حينذاك وهو ينظر إلى المشهد الذي غدا شبيهاً بسماءٍ واطئةٍ مرصّعة بنجوم متحرّكة، لمح فراشةً بيضاء ترفرف في قلب العتمة. تذكّر بأنّه من بين كل أصناف الحيوانات والطيور، لم ير فراشات، بل لم ير حتى فراشة واحدة. ترامى إلى سمعه نداء: ريان.. ريان..

سرت في أوصاله نسمة طمأنينة، بدا الصوت مألوفاً لسمعه، ذات الصوت الذي يترامى إليه في البيت بين حينٍ وآخر عند ظهور الفراشة. مدّ أنظاره بحثاً عنها، بيد أنّه لم يرها بسبب العتمة الدامسة واختفاء الخنافس المضيئة. عاد الصوت: ريان.. ريان..

هَبَّ وإقفاً على قدميه، أدرك بأن الفراشة تحطّ بالقرب منه. قال: من أنت؟

جاء الصوت: أنا إنسانٌ صغيرٌ مثلك.

دُهِشَ لما سمعه فقال: إذا كنتَ إنساناً صغيراً مثلي لماذا لا تظهر؟



عودة الفرائشات

ترامى الصوت عَنْ قُرْب: لو كان الأمر بيدي لظهرت، لكنني
لا أستطيع.

غياب الجدّ

ازداد الجدّ رِيَّان كَأَبَةً على كَأَبَةٍ، وقلقاً على قلق جَزَعاً على حفيده الذي توارى عنه بغتَةً دون أن يدري أين ذهب وما مصيره الآن. فعندما استيقظ بعد غفوةٍ قصيرةٍ ولم يجده، اندفعت نبرات صوته: رِيَّان.. رِيَّان.. أين أنت يا بُني.

قام يبحث عنه في الدروب كالمخبول وهو يُنادي بغمٍ ناشفٍ: رِيَّان.. أين أنت يا رِيَّان.. دون أن يسمع له صوتاً. رجع إلى ذات الموضع، اقتعدَ رصيف البناء. لبث ككاهن في قلب العتمة وقد خيم السكونُ على كل شيءٍ من حوله بعد كل ذاك الضجيج الذي كان عائماً طوال ساعات النهار.

- أين أنت الآن يا (جدو).. لماذا تركتني وحيداً، ألا تعرف بأن لا أحد لي في هذا العالم كَلِّهِ غيرك، هل ضجرتني وتخلّيت عني لأنني صرْتُ أثقل عليك كل يوم بالخروج.

مضى الليلُ بطيئاً عليه كدهر وهو قابضٌ على حافة الرصيف واضعاً وجهه في راحتي كَفِّهِ.

تناهت إلى أسماعه زقزقة العصافير، فتحَ عينيه عن غفوةٍ، تأملَ الخيوط الأخيرة من الظلام تنسحب رويداً رويداً من الطرقات، بدأت بعض البهائم تخرج إلى الشارع.

نهض واقفاً على قَدَميه، مشى بظهره المُحدَوَّب على الرصيف متَّكئاً على العُكَّاز: جدّي.. جدّي.. دوى الصوتُ على شكل صدى

وترامى إلى سمعه من بعيد، صاح بأعلى صوته المرتعش: ريان.. ريان.. أنا هنا يا (جدو).

وزّع نظراته على كل الاتجاهات بلهفة، تراءت قامته من أحد فروع الشارع الطويل، وهو يجري نحوه، قذف نفسه في حضنه كما لو أنه كان غائباً عنه دهرًا.

قال بأنفاس متقطعة: عندما رأيتك غافياً يا جدّي ذهبت أبحث لعلّي أجد إنساناً وأفاجئك به، لكن خيم عليّ الظلام وضللتُ طريق العودة.

طبّطب الجدّ على كتفه، سارا في الشارع الذي أخذ يزدحم بأصناف البهائم وغدت الشمس تفرش أشعتها على الجدران والطُرقات رويداً رويداً.

بعد مسير نحو ساعة، توقّفت بالجدّ خطواته وقال: انتظر يا ريان.. انتظر.. ثم وضع حافة كفه خلف أذنه: ألا تسمع صوتاً يا ولدي؟

توقّف ريان بجانب جده ركّز في الإصغاء وبعد لحظاتٍ قال: أسمع صوتاً رفيعاً لم أسمعه من قبل.

قال الجدّ: نعم يا بُني هذا هو، لم يسبق لك أن سمعت بكاء طفل رضيع.

قال: صوته لا يشبه صوتنا يا جدّي.

قال: نعم يا بُني أنت أيضاً عندما كنت رضيعاً كنت تبكي مثله. ثم عاد بذاكرته إلى الوراء وقال: ولدت يا بُني في سنة

عينيه على رؤيته، ترعرع يوماً بعد يوم في كنفه. لأوّل مرّة يبقى صامتاً لا يردّ عليه، يبقى جامداً لا يتحرّك. كان الجدّ، والأب، والأنيس، كان الإنسان الوحيد الذي يراه ويتحدّث معه. قفّرت كلماته إليه عندما قال له ذات يوم: إذا مت يا بُني، احفر لي حفرةً واردم التراب عليّ.

يومها تفرقت الدموع في مآقيه وقال: لماذا تقول هذا يا جدّي.. وهل أستطيع أن أفعل ذلك.

قال: هذه هي الحقيقة يا بُني، عليك أن تكون قادراً، تذكّر دائماً بأنني لن أغيب عن الحياة، سأبقى فيها من خلالك، ستبقى رائحتي فيها من خلال رائحتك، أنت أنا الصغير يا (جدو).

في تلك اللحظات الحاسمة فكّر ملياً دون أن يجد بداً من فعل ذلك، أتى بحمار، حمل جده عليه، اتّجه به إلى قطعة أرض شاغرة، ونفّذ ما أوصاه به جده.

شرد بالتناقض الذي حدث أمامه، التناقض الذي أصبح واقعاً ملموساً، جده الذي كان بالنسبة إليه يمثّل عالماً كاملاً يقف على الأرض، الآن أصبح تحت الأرض كما لو أنّه لم يكن ذات يوم، كما لو أنّه لم يعيش في الحياة ذات يوم. لقد ترك كل شيء في العالم واستقرّ في جوف الأرض.

عاد ريان وبين لحظةٍ وأخرى يلتفت إلى المقبرة ودموعه تنهمر، كبرت الغصّة في حنجرته وهو يمشي، لأوّل مرّة يخرج

مع جده ويعود وحيداً. مع تماثل الشمس للمغيب، وصل البيت، مدّ خطواته الأولى إليه، دهمته وحشة غريبة لم يعرفها من قبل، كان كل يوم يخرج برفقة جده، ويعود برفقته، يشعر بأنس وجوده في البيت، لم يخطر له بأنه سيغيب عنه ذات يوم ويتركه وحيداً.

تدأعت إلى مُخيلته ذكريات السنوات الماضية التي كبر فيها سنةً بعد سنة في كنف جده في هذا البيت القديم. تعلّم منه كل شيء، كان له الأب، والأم، والجَدُّ، والرفيق. كان العالم كله يتمثل فيه، يسأله عن كل ما يخطر في باله، وهو يجيبه، يتحاور معه. كان يراه بين حين وآخر يقرأ كتاباً، ولم يكن في البيت سوى ذاك الكتاب الوحيد. كان ينظر إليه بدهشة وهو يقرأ، أحياناً كان يحمل الكتاب، ينظر إلى الكلمات، إلى السطور، يمضي وقتاً طويلاً وهو ينظر، يقلّب الصفحات دون أن يستوعب شيئاً ممّا ينظر.

عندما بلغ السادسة من العمر، سأل جده قائلاً: لماذا تقرأ هذا الكتاب كل يوم يا جدّي؟

كان جده إذ ذاك يقرأ، فرفع رأسه عن الكتاب وقال: هذا ليس كتاباً عادياً يا بُني، هذا قرآن، كلما أقرأه مرّة جديدة، أشعر بأنني أقرأه لأول مرّة، أكتشف فيها ما لم أكتشفه في كل القراءات السابقة على مرّ السنوات.

نظر رِيَّان إلى الكتاب المفتوح بين يَدَي جده وقال: أريد أن
تُعَلِّمني القراءة يا جَدِّي.
منذ ذك اليوم بدأ جده يُعَلِّمه القراءة، أمضى سنةً تُعَلِّم فيها
القراءة ولم يعد بحاجةٍ إلى سؤال جده عن بعض الكلمات.
استلقى على الفراش مُنْهَكاً، بكى بصمتٍ، لا يدري كيف غفا
تحت وطأة ثقل الإرهاق، غفا حزناً، وبكاءً، وشعوراً بوحدةٍ
مروعة. عندما فتحَ عَيْنَيْهِ، ألقى خيوط الضوء تتسرَّب من
النافذة، فأدركَ بأنَّه صباحٌ جديد، أوَّل صباح يأتي إليه وهو
لوحده في البيت، تناهى إلى سمعه صياحُ الديكة، تمطَّى في
الفراش، أحسَّ بأن جسده أخذ كفايته من النوم، أزاح الغطاء
عن جسده وبرح الفراش، مضى شطر النافذة، فتح درفتَيْها،
تأمَّل حديقة البيت. انتابه شعورٌ بأنَّه الإنسان الوحيد في العالم
ولا أحد يقطنه غيره.





الفصل الثاني

الخریف

أقحوان

أراد أن ينسجم مع الواقع الجديد الذي رأى نفسه فيه، يُقاوم نوبات الاكتئاب التي تتسرّب إليه بين وقتٍ وآخر. أطلق العنان لمخيّلاته، أدرك بأن لديه طاقات خفيّة عليه أن يسعى إلى اكتشافها، أن ما يعرف عن نفسه هو قليلٌ من الكثير الذي يجهله عنها: عليك أن تكون قويّاً كجبل يا ريان، تكتشف مكامن القوّة في جسدك، مكامن القوّة في تفكيرك. عليك أن تثبت لنفسك بأنك تستحق الحياة، تستحق أن تأكل وتشرب، تمشي في وضوح النهار بحريّة تحت الشمس، تنام، تستيقظ، تنظر إلى الأشياء، تستحق أن تحفظ الأماكن، أسماء الأشياء، تشهق، تزفر، تسمع، تفكّر.

اتّجه إلى حديقة البيت، حملَ المعول، ربّب أماكن بعض المزروعات التي عرّضها الخريف للذبول، لكن بقيت زهرة واحدة بدت له بأنّها تحدّت الخريف، الزهرة الوحيدة التي أصرّت أن تلبث في نضارتها من بين جميع ألوان الزهور في الحديقة.

تذكّر أنّه سأل جده ذات خريفٍ عن هذه الزهرة التي تبقى يانعة حتى في ذروة الخريف، قال: هذه زهرة الأقحوان يا بُني، تتصدّى لعوارض الخريف وتأبى أن تذبل.

نظر إلى أوراقها المُجنّحة البيضاء، تأملَ الكُرّة الصفراء في وسطها، امتدّ بصره إلى ساقها المُضلّعة.

صفن للحظات ثم اتَّجه إلى دالية العنب، أزاح أوراقاً صفراء تراكَمت حول جذعها، أجال بنظره بين الغصون اليابسة التي خلت من كل ورقة خضراء، من كل حبة عنب، تخيل كيف أن الشجرة تعدّ نفسها لاستقبال موسم جديد من أوراق خضراء وثمار يانعة، وإن لم تعدّ نفسها، تلبث عارية من أوراق وثمار، لا يقربها بشر ولا طير، ستكون شجرة لا نفع فيها، شجرة متطفلة على الحديقة، سيأتي عليها الربيع وتكون دون الشجرات التي أعدت نفسها وأثمرت بثمار جديدة ناضجة.

أجل يا ريّان تلك الشجرة التي كانت تقف بشموخ على أوراقها الخضراء وثمارها الياضعة، ويأتيها الناس والطير من كل حدب وصوب، سوف تسمي شجرة بائسة لأنها لم تعدّ نفسها لفصول التجدد.

ها هو الصيف مضى بكل قيظته الشديد يا ريّان، وها هو الخريف أقبل بكل هبوب رياحه التي تنزع عن الأشجار أوراقها التي أمست صفراء يابسة. ما الذي أعدته للخريف يا ريّان، حتى ترويه أمطار الشتاء، ويزهر أمام عينيك؟. سوف يأكلك الصدا إذا لبثت بلا أفكار جديدة، بلا مشاريع جديدة في مستهل سنة جديدة. لا يكفي ما قدّمت في السابق يا ريّان مهما كان حجم تقديمك، المهم أن تستمر في زرع بذور إنتاج جديد حتى يكون ربيعك ربيعاً، وصيفك صيفاً، وخريفك خيفاً، وشتاؤك شتاءً. وإلا ستبقى في خريف أبديّ مهما دارت عليك الفصول،



كما أن شجرة حديقتك ستبقى في خريفٍ أبديٍّ مهما دارت
عليها الفصول.

أحسَّ بأن أساريه تتفتَّح، صدره ينشرح، مدَّ بصره إلى
جدوع الشجرة، إلى زهرة الأقحوان، إلى نفسه، إلى رحابة
السماء. خطا صوب الحمام، استحمَّ بشكلٍ جيّدٍ، بدّل ثيابه
وخرج إلى الشارع، أحسَّ بلياقة كما لو أنّه لاعب جمباز.

أوتار العود

وقف أمام الباب يرنو إلى الحشود الهائلة من الدواب التي اكتظَّ الشارعُ بها تاركَةً أصواتها تعلو وتتداخل. دَسَّ يديه في جيبه، مشى بتؤدَّةٍ على الرصيف بمحاذاة الجدران والأبواب، مدَّ أنظاره إلى الأبنية الشاهقة الممتلئة بالنوافذ. مضى بعيداً وهو يتأمَّل ويشرد، يرى بأنَّه الكائن الوحيد الذي يمشي بمفرده، كل الكائنات من حوله تمشي مع بعضها، لا يمشي مخلوقٌ لوحده سواه.

لفت نظره محلٌّ ممتلئٌ بآلاتٍ موسيقيَّةٍ، رأى في داخله حشداً من غزلانٍ كانت مسترخية في أرضية المحل، والبعض على أرائك مكسوَّة بجلدٍ أسود غرَّته النتوءات.

خطا إلى الداخل، مرَّ أنظاره على آلاتٍ موسيقيَّةٍ مُعلَّقة على الجدران وقد تراكم عليها غبارٌ كثيف. مدَّ يده إلى عودٍ، نفخ عليه عدَّة نفخات، أنفض عنه الغبار، داعب أوتاره فأصدرت ترنيمات موسيقيَّة. نهضت الغزلان عند سماع النغمات، صوّبت أنظارها إليه، أصدرت سليلاً، ابتسم وداعب الأوتار كرةً أُخرى، انبعث سليل الغزلان بشكلٍ مُتناعِم. وقف للحظاتٍ وسط المحل محفوفاً بالغزلان، ثم خرج حاملاً العود، لحقته بعض الغزلان إلى مسافةٍ غير بعيدة وما لبثت أن أقفلت راجعةً إلى موقعها. استأنف المسير شطر البيت وهو يشعر بأنَّه يحمل آلةً سحريَّة يمكن لها أن تُصدر له أصواتاً متى أراد بمجرَّد تحريك الأوتار.

ضرب بأصابعه على الأوتار مرّةً أخرى كما لو أنّه أراد التحقق أكثر أنّها ما تزال تُصدر الأصوات. لحقته قططٌ وأرانب وهو يمشي الهوينا ويعزف حتى وصل البيت. قعدَ في غرفته، مسح العود بنظرةٍ عامّةٍ إلى كل أجزاءه، ضرب على أوتاره هذه المرّة بظفر السبّابة، راق له ذلك، غدا يضرب أكثر والنغمات تتوالى.

كانت المرّة الأولى التي سمعت فيها أذناه نغمات موسيقيّة، أدرك بأن الحياة فيها أشياء جميلة ومجهولة وعليه أن يسعى لاكتشافها. وقَعَ نظره على ريشة كانت معلّقة على العود، سحبها برفق، نظر إليها للحظات، نقرَ بها الأوتار بشكل عشوائي فأصدرت نغمات متداخلة.

عدّ الأوتار، وجدها خمسة أوتار مُزدوجة، نقرَ الوتر الأعلى، أصدر نغمةً منفردة، نقرَ الذي يليه، أصدر نغمةً مُختلفة، نقرَ الذي يليهما، أصدر نغمةً مختلفةً أخرى، ثم الوتر الرابع، فأصدر نغمةً مختلفة، نقرَ الوتر الخامس، فأصدر نغمةً جديدةً.

أدرك بأن هذه النغمات يتكامل بعضها ببعض، كل وتر يتمنّع بمزايا نغميّة لا يتمنّع بها الوتر الآخر.

أمسك الريشة بالسبابة والإبهام، أعاد العزف مرّةً أخرى على الأوتار وترّاً وترّاً. أدرك بأنّه كلّما تمكّن من إمساك الريشة

بشكل جيّد، كلّما استجابت الأوتار وأخرجت نغماتها بشكل أفضل.

لفتت المفاتيح نظره، تتبّع الأوتار، رأى أن كل وتر متّصل بمفتاحه، حرّك مفتاحاً، عزف على وتره، بدت النغمة المنبعثة منه تختلف كلّما حرّك المفتاح يمنةً، أو يسرةً، فإن شدة كثيراً، جاء الصوتُ حادّاً، وإن أرخاه كثيراً، جاء الصوت رخواً. ألقي نظرةً تأمليةً إلى العود، غدا يعكس هذه الملاحظات على نفسه، تحوّل العود إلى رشيدٍ له.

حمّله وأتى به إلى الحديقة، قعد على الكرسي، وضع العود في حضنه، مدّ كفّه اليسرى إلى مقدّمة العود، وضع أصابعه على الأماكن المناسبة من الأوتار، أمسك الريشة بكفّه اليمنى، صار يضرب بواسطة الريشة على الأوتار، أخذت النغمات تتوالى وتنتشر في أرجاء الحديقة.

وقعت عيناه على الفراشة وهي ترفرف أمامه كما لو أنّها تتراقص، بعد قليلٍ جاءت فراشات أخرى، غدت ترفرف أمامه، تكاثرت الفراشات وهو يعزف وينظر إليها باستغراب. اكتظّنت الحديقة، غمرته الفراشات ولم يعد يرى شيئاً غيرها. توقّف عن العزف، توارت الفراشات عن الحديقة، لبثت فراشةً واحدةً حطّت على أنف العود. قالت: لماذا توقّفت عن العزف يا ريان؟ رمقها بنظرةٍ وجلةٍ وقال: من أين أتت كل تلك الفراشات؟!

قالت: هؤلاء هم أطفال وليسوا فراشات، كما أنني طفلة ولستُ فراشة.

قال دَهْشاً: وهل الأطفال لهم أجنحة يطرون بها؟! ضحكت وقالت: عندما اشتدَّ القتال بين الناس، واسترخصوا دماء بعضهم البعض، نحن الأطفال قرّرنا أن ننسحب من بينهم، رأينا بأنهم لا يستحقّوننا، فتحوّلنا إلى فراشات حتى ننفذ أنفسنا منهم.

هزَّ رأسه وهو يستذكر ما سمعه من جده عن ظاهرة اختفاء الأطفال. استأنفت الفراشة: الآن وبعد كل الذي حصل، وكادت الأرض تخلو من رائحة الإنسان، نريد أن نعود أطفالاً كما كنّا، لكن كل محاولتنا باءت بالفشل.

قال: ما اسمك؟

قالت: وئام.

قال: هل تذكرين كيف تحوّلتِ إلى فراشة؟ قالت: نعم، أغمضتُ عيني وحلمتُ بأن أتحوّل إلى فراشة، وعندما فتحتُ عيني رأيتني وقد تحوّلتُ إلى فراشة، رفرفتُ بجناحي وطرْتُ خارج البيت. في تلك اللحظات، شعرتُ بأمانٍ، رأيتُ بعض الأطفال وقد تحوّلوا إلى فراشات.

طارت الفراشة فجأةً وتركت أثرها على العود، أثرها في الحديقة، في مخيلته. ذهب إلى المرأة، نظر إلى وجهه، إلى الشامة

الصغيرة على خده الأيمن بالقرب من الأنف، إلى قامته الباسقة. تخيل وئام على هيئته، لكنّه تذكّر كلامها بأنّها بنت. تساءل في قرارة نفسه: كيف تكون البنت.. هل تختلف عن الولد؟

لم يسبق له أن رأى امرأةً حتى يتخيل وئام على هيئتها، أدرك للتو بأن صوتها كان مُختلفاً عن صوته، كان ناعماً.

استردّت ذاكرته كلامها: عالمُ الحيوان مُختلفٌ عن عالم الإنسان، إنهم يعرفوننا جيداً أينما يروننا. ذات يومٍ قلتُ لأسدٍ: كيف عرفتَ بأنني لستُ من سلالة الحيوان؟

قال: شممتُ منك رائحة الإنسان، نحن رائحتنا مألوفة لنا، أينما شممناها، عرفناها.

قلتُ له: أنتَ كائنٌ مُخيف.

ابتسم ببلاهة وقال: لا يوجد كائنٌ مُخيفٌ أكثر منكم، أنا هنا لا شيء يُخيفني في هذه الغابة، لكن يُخيفني الإنسان وحده، لأنه الوحيد القادر أن يمسك بي، بل ويجعلني في قفص، ويحيلني إلى فرجة للأطفال، وهذا ما لا يمكن لأي كائنٍ على سطح الأرض أن يفعله بي غير الإنسان. لا أخاف من مخلوقٍ قط، ولكن عندما أرى الإنسان، أرتعب منه، هو الكائن الوحيد الذي يجعلني أجفل عندما أراه، لأنّه يمكن بحركةٍ ما أن يجعلني أسيراً لديه، أو يقتلني.

رجع إلى العود، تلمّس مدى حنان هذه الآلة العجيبة التي تُصدر كل تلك الأنغام التي تحرّك المشاعر: ثمة شيءٌ خفيّ

يتوارى خلف هذه الأوتار له علاقة بشغاف الروح، ثمة تناغمٌ خفيٌّ بين هذه الأوتار وخفقات القلب، أوتارٌ سحريةٌ تمتلك مقدرة هائلة على تهذيب المشاعر، وتبتّ عذوبةً إلى كل عضوٍ من أعضاء الجسد. قال ذلك في سره وأمسك بالريشة جيداً، عزف على الأوتار، بعد قليلٍ تناهت إلى سمعه خبطات على الباب المغلق، تداخلت مع نغمات العود، توقّف عن العزف، رفق الباب، توالّت الخبطات عليه. كانت المرّة الأولى التي يُطرق فيها على الباب، تذكّر سليمان، تخيّل يقف خلف الباب بعينيّه الصغيرتين ورقبته الطويلة. قال بنشوة: هل يُعقل أنّه قد عاد؟

حطّ العود على الطاولة التي كانت في الحديقة بالقرب من الكرسي، نهض متّجهاً إلى الباب، فتحه، رأى مجموعةً من الدواب تجمّعت في الشارع قبالة البيت تصوّب نظراتها إليه.

وزّع نظراته على وجوهها المختلفة عن بعضها البعض: أصدر خروفاً مأمأةً، أصدرت قطعةً مواءً، أصدر عجلٌ خواراً، أصدرت أرنبه ضغيباً. افترّ ثغره عن بسمّة، آبت به خطواته إلى الحديقة. حمل العود والكرسي، وضع الكرسي على الرصيف، جلس عليه، عقد ساقاً على ساق، نقرَ على وترٍ، لاذت الحيوانات بالصمت.

عزف لها ولنفسه بشكلٍ عشوائي، أحسّ بأن النغمات تُفعل فيه مشاعر غريبة لم يسبق له أن عرفها.

لبث يعزف ساعةً والحيوانات تستمع بإنصاتٍ، ثم توقّف عن العزف، نهضَ ولوّح لها بيده، مضت الحيوانات في عرض الشارع تاركةً أصواتها المختلفة تعلو وتتداخل.

كانت الموسيقى بالنسبة إليه اكتشافاً جديداً، اكتشف من خلالها الإيقاعات الموسيقيّة في أصوات الحيوانات التي يسمعها، كل صوت يغتني بنغماته الخاصّة. استرجع بذاكرته أصوات الحيوانات التي سمعها، استعاد إيقاعاتها الموسيقية: الديك وهو يصيح بشكلٍ منظمٍ لا نشاز فيه، يصيح كما لو أنّه يشدو بمقطوعةٍ موسيقيةٍ بإتقان، النغمات التي يغتني بها طنينُ النحلة، صفير النعامة، مواء القطّة، كعيص السلحفاة، نقيق الضفدع، صرير الفأرة، خوار البقرة، يعار الماعز، تغريد البلبل، أزيز الذبابة، نعيق البوم، نقنقة الدجاجة، مأمأة الخروف، صهيل الخيل.

شمس الكتاب

أدخل العود إلى غرفته التي ينام فيها، أحسّ بنسمة منعشة من الحيويّة تسري في عروقه، راودته رغبة جامحة للخروج من البيت كي ينظر إلى كل شيء يراه، يستمع إلى كل صوت يتناهى إليه، ينظر إلى الأرض، إلى الطرقات، إلى السماء، إلى البهائم وهي تمشي، إلى الطيور وهي تُحلّق في الفضاء. مضى إلى الخارج، وقف للحظاتٍ على الرصيف، مدّ خطواته إلى كبد الشارع الطويل، ولجّ طُرقات فرعيّة كما لو أنّه يمشي في المدينة لأوّل مرة، يستكشف معالمها لأوّل مرّة. وقعت أنظاره على مكتبةٍ مكتظّة بالكتب، كم من مرّة مرّ بجانب هذه المكتبة دون أن ينتبه إليها؟ وقف يتأمّل كتباً كانت في الواجهة الزجاجيّة، اشترأب إلى داخل المكتبة، رأى فوجاً من القردة، نظر إلى وجوهها وجهاً وجهاً. تخيلها مجموعة من الناس وهو يرى الشبه الكبير بينها وبين الإنسان، مدّ خطواته داخلاً، نهضت القردة. قال في سره: هل هي أيضاً تُدرك أنّني الكائن الوحيد الذي أشبهها وهي ترمقني بكل هذه النظرات؟ مشى أمام الرفوف بخطوات بطيئة يتأمّل الكتب المصفوفة بعناية وفق أحجامها المختلفة. أحسّ بهيئة المكان، مدّ يده إلى رفٍّ، سحب كتاباً من وسط الكتب المصفوفة، نفخ عليه فتناثر منه غبارٌ كثيف، خبّط بكفّه على القاب عدّة خبطات، تناثر الغبار أكثر، تصفّح الكتاب وأبقاه في

يده، مضى إلى رفوفٍ أخرى، حمل بعض الكتب ورجع بها إلى البيت، أعد لها رفاً في غرفته ورتبها بشكلٍ منظمٍ عليه.

سحب كتاباً، جلس متربّعاً على الحصيرة وشرع في القراءة، دخل إلى عالم الكتاب، أحسّ بأن مداركه تتفتّح مع كل صفحة قراءة، يتعلّم أشياء لم يكن يعلمها من قبل، خطرت له أفكار لم تخطر بباله من قبل. أدرك وهو يقرأ أن الحديث باللغة لا يكفي، بل عليه أن يقرأها أيضاً، وأن القراءة تفصح له عن مكنوناتٍ فيها لا يفصحها أيّ حديثٍ مهما بلغ من فصاحة: أجل يا ريان هناك معارف لا يمكنك أن تدركها إلا إذا قرأت، هُناك لآلئ لا يمكنك أن تلمسها إلا من خلال القراءة. نظرَ إلى الكتب المصفوفة على الرف، ثم نظر إلى العود وقال: إن شخصاً مثلي يمتلك كتباً وموسيقى لن يجد اليأس سبيلاً إليه.

غدت القراءة تفصح له عن جماليّات جديدة، كما أن الموسيقى أفصحت له عن جماليّات جديدة.

اكتشف لذّة الذائقة لأوّل مرّة، لذّة المشي، لذّة النظر، لذّة الطعام، لذّة الشراب، لذّة الاستحمام، لذّة استبدال الثياب، لذّة الموسيقى، لذّة القراءة، لذّة الإيواء إلى الفراش، لذّة الاستيقاظ من النوم.

أضحى ذلك الاكتشاف سبيله لمعرفة قيمة الأشياء، قيمة الوقت، جعله يُنظّم وقته تجنّباً للإفراط، أو استخدام شيءٍ على حساب شيءٍ آخر. قسّم وقته بين العزف على العود، والقراءة،

والعناية بالمرزوعات في حديقة البيت، ورياضة المشي، وساعات النوم، وأوقات الاسترخاء القصيرة.

اكتشف أن لكل وقتٍ من الأوقات مزاياه التي تختلف عن مزايا أوقاتٍ أخرى، مزايا ساعات الصُّباح المُبكرة، مزايا الظهيرة، مزايا العصر، مزايا الغروب، مزايا بدايات الليل، مزايا أوقاتٍ متأخرةٍ منه.

اكتشف بأن لكل ذلك علاقة وثيقة مع وضعه النفسي وتفكيره والتداعيات التي تخطر له. لاحظ أن النظر إلى كل صنف من الحيوان، يبتُّ إليه مشاعر مُختلفة عن النظر إلى صنفٍ آخر: النظر إلى أسراب العصافير يختلف عن النظر إلى أسراب اللقالق، يختلف عن النظر إلى قطيع الماعز، عن النظر إلى مجموعة من الدجاج، الأرانب، القطط، الكلاب. كل صنف من الحيوان يُفعل فيه مشاعرٍ جديدة لا يُفعلها الصنف الآخر.

أدرك أنه من خلال ذلك يتعرَّف على نفسه، يكتشف مدى جهله بمعرفة نفسه: ليس لك من سبيلٍ للتعرف على نفسك يا ريان سوى سبيل التعرف على الأشياء التي تحيط بك، كلما تعرفت عليها أكثر، تعرفت على نفسك أكثر. لا أحد لك في هذا العالم كله يا ريان، ربما أنت الآن بقيت الإنسان الوحيد في البلاد، في القارة، في العالم. رأيت كم أن الموسيقى عظيمة، كم أن القراءة عظيمة، كم أن العمل عظيم.. هيا انطلق إلى أحضان الطبيعة لتكتشف كنوزها، لتعرفك بنفسك أكثر.. الطبيعة هي

المرأة الحقيقية التي تتعرّف على نفسك فيها، هي مرآة المرأة. وأنتَ تنطلق، انظر إلى بعيدٍ، بعيد أبعد ما يمكن لنظرك أن يصل، هذه الأبنية تحجب عن عينيك متعة النظر إلى بعيد، إلى رحابة الأرض.

تقدّم إلى جوادٍ، امتطاه، اتّجه به إلى قلب الطبيعة، استمع إلى وقع حوافر الجواد وهو يسرع، اعتراه شعورٌ بأنّه خرج من بقعةٍ مُغلقةٍ إلى فسحة أرضٍ مفتوحة. بدت الروائح مُنعشة، لم يسبق له أن شمّها من قبل، أشجار لم يسبق له أن رآها من قبل، أودية، تلال، أعشاب، زهور، حيوانات زاحفة، شلالات، ينابيع.

أوقف الجواد بالقرب من شجرة صفصاف، نزل وسط الأعشاب تاركاً الريح تعبث بشعره الطويل، جال بعينه في الأرض المكسوة بخضرة خفيفة وهو يشعر بأنّ خلاياه تتجدّد، دمه يتجدّد، يشعر كم أنّه كان بحاجةٍ إلى استنشاق هذا الهواء النقي، إلى هذه الطبيعة الهادئة الغنيّة بعناصرها ومقومات الحياة فيها.

لفتت نظره حشرة جميلة خضراء فاقعة بلون العشب، دنا إليها، نظرَ إلى انتشاء أرجلها الأمامية بشكلٍ غريب، قرني الاستشعار الرفيعين في أعلى رأسها، تناهى إلى سمعه صوتها: أنا سرعوف. حدّجها بامعان، فتتالى الصوت: يسمّونني فرس النبي، جَمَل سُليمان، صاحب البستان. أدارت رأسها دورة

كاملة وقالت: أنا الحشرة الوحيدة التي تستطيع أن تُدير رأسها دورة كاملة.

حلَّق طائرٌ بنِّي مرَّقَط بريش أسود، حطَّ بالتواءٍ متناغم بالقرب منه، أحس بالهدوء وهو ينظر إليه، لفت نظره العرف البارز في أعلى رأسه كما لو أنّه تاج من الريش. قال: أقدم لك نفسي، أنا الهدهد.

خفق طائرٌ بجناحيه من شجرة جُمَيز، أتى إليه وهو يغرد، انتبه إلى منقاره الرفيع الطويل. ذُهل لتغريده البديع. قال: أهلاً وسهلاً بك في طبيعتنا، أنا طائر الكروان.

بعد قليل حط طائرٌ قبالتة، مشي على العشب بخيلاء وهو يفرد جناحيه كما لو أنه يستعرض جماله. قال: أنا الطاووس. فرّت حشرة، حطّت أمامه بجناحيها الأحمرين المرقّطين بنقاط سوداء. قالت: أنا دُعسوقة، يلقّبونني بابنة العيد.. حلتّ أهلاً ووطئت سهلاً.

راوده شعورٌ بأنّه في عالمٍ سحري. قسّم في مخيلته العالم إلى نصفين، نصف المدينة المزدهمة بالأبنية، ونصف الطبيعة الغنية بآيات الجمال. أدرك بأنّه كان قد حرّم نفسه من الاستمتاع برؤية نصف العالم الذي كان غائباً عنه.

امتطى الجواد، اتّجه به بين الأعشاب، لحقته الحيوانات في الأرض والطيور في الفضاء وهي تُصدر أصواتاً مُتناسقة كما لو أنّها موسيقى بالآتٍ مُختلفة. لاح له نهرٌ من بعيد، يممّ شطره،

كان منظر النهر مُختلفاً عن أيّ منظرٍ آخر رآه في الطبيعة، منظر حرّك فيه مشاعر انشراح الصدر، التنفيس عن همٍّ كان جاثماً في أعماق قلبه. كان النهر واسعاً وطويلاً لم يستطع أن يرى حدوداً له. أوقف الجواد على الضفّة، نزل عنه، خطا إلى الشاطئ، ورّع نظراته على امتداد النهر الواسع، نظر إلى ألوان الطيور وهي تُحلّق فوقه، إلى أسماكٍ ترتفع بين فينةٍ وأخرى إلى الأعلى وتعود كما لو أنّها في مباراةٍ أيّها يعلو عن سطح الماء أكثر.

تقدّمت إليه طيورٌ لم يرها قبل قليل عندما اجتمعت حوله، فأدرك بأنّها طيورٌ تعيش على الأنهار. حلّق طائرٌ وحط بجانبه، انتبه إلى ساقيه المكشوفتين بالكامل، إلى منقاره المعقوف، بدا أمامه قوياً، تقدّم إليه وقال: أنا طائر النورس.

حلّق طائرٌ كبير الحجم برشاقةٍ وحطّ بجانبه، مشى إليه بطريقة ملفتة على شكل قفزات وقال: أرحب بك على النهر، أنا طائر البجع.

راودته رغبة في دخول الماء، خلع ثيابه، وعندما بقي الشورت ومدّ يده لينزعه، رمق الحيوانات، أحسّ بحياءٍ، فلبث مرتدياً إيّاه دون أن ينزعه، مدّ خطوات إلى النهر رويداً رويداً، غدا يُبرطع في الماء وصوته يخرج مع كل خطوةٍ على شكل ترنيمة: أحّ.. أحّ.. أحّ.. كانت المرة الأولى التي يرى فيها جسده يغوص في الماء، تقدّم حتى غمره الماء إلى رقبته، ولم يعد يظهر

منه سوى سواد رأسه. سدّ فتحتي أذنيه وأنفه بأصابعه وغطس رأسه، ثم رفعه، نثر الماء المتراكم بلفتة سريعة من رأسه وعاد يغطسه. كانت الحيوانات التي رافقته تقف على الشاطئ تنظر إليه من الخلف والطيور تحلق فوقه وهو يرفع رأسه وينثر الماء عنه ويُعاود الغطس.

أبقى جسده في الماء بعض الوقت وهو يشهق ويزفر، استدار عائداً إلى الشاطئ، بدأ جسده يظهر رويداً رويداً كما دخل حتى بلغ الشاطئ وخرج تماماً من الماء. ارتجف مع هبوب الهواء على جسده المبلل الذي تتقاطر منه حبات الماء.

وقعت عيناه على صخرة ملساء بالقرب من الشاطئ، جرى وهو يرتجف وأسنانه تصطك، برك عليها معرضاً بدنه للشمس. اتجه إليه دبّور يتقدّمه زينه المتعالي، فرّ هارباً، لحقه الدبّور، حمل كنزته الداخلية البيضاء، صدّ بها الدبّور، بدا كما لو أنّه في معركة معه، أخذ الدبّور يشنّ هجماته عليه تارةً وتارةً هو يشنّ هجماته بالكنزة عليه حتى ابتعد الدبّور وتوارى عن أنظاره. عاد يبرك على الصخرة التي كانت ابتلت بما علق من ماء على الشورت، نظر إلى مساحات ماء النهر تارةً وطوراً إلى مساحات الطبيعة تاركاً صدره يعلو ويهبط جراء اللهاث الذي سبّبه المعركة الصغيرة مع الدبّور.

تجفّف شعره وجسده، غدا يستشعر بأشعة الشمس تلسعه، نهض بحيويّة، ارتدى ثيابه، وما برح أن امتطى صهوة الجواد.

رجع ريان إلى البيت بشوقٍ كما لو أنه كان غائباً في بلاد بعيدة، رجع وهو يتخيّل تلك الطقوس التي رآها، تلك المسافة التي قطعها على الجواد ذهاباً وإياباً. في تلك اللحظات فرّ بلبلٌ صغير كان قد حطّ على كتفه دون أن ينتبه، اتّجه إلى دالية العنب يرفرف بجناحيه، حطّ على غصنٍ رمقه بنظرةٍ، رأى البلبل أيضاً يصوّب نظراته إليه. مضى إلى غرفته الصامتة، استلقى على الإسفنجة الممدّدة على الأرض. بعد قليلٍ من الاسترخاء مدّ يده إلى الكتاب الذي كان بجانب الوسادة، شرع يقرأ من الصفحة التي كان قد وضع قصاصةً عندها، استغرق في القراءة حتى غلبه النعاس.

في الصباح عندما فتح عينيه، رأى البلبل في الغرفة، كان منظره بديعاً وهو يُرفرف بجناحيه، حط برفقٍ على صدره، دنا إلى وجهه، تحسّس لمسات منقار البلبل على وجهه كما لو أنه يقبله. بعد هنيهة طار ورفرف مرّةً أخرى في فضاء الغرفة وحطّ على النافذة.

تأمّله للحظات، كان البلبل ينظر إليه كتلك النظرات التي كان ينظرها وهو على غصن الدالية. نهض من الفراش، راح يرشق وجهه بعدّة رشقات من الماء أحسّ معها بأنه ازداد صحواً، اتّجه إلى المرأة الكبيرة في واجهة خزانة الثياب، وقف أمامها نظر إلى قسّمت وجهه، إلى شعيرات خفيفة ظهرت وامتدّت فوق شفته العليا، الزغب الخفيف الذي تناثر على وجهه، إلى قامته

من قَمَّةِ رأسه إلى أخمَصِ قَدَمَيْه، مَدَّ يده إلى المشط، مَشَّطَ شعره بعناية، استدارَ ينظر إلى قامته من الخلف، مرَّ بصره من الأعلى إلى الأسفل، مضى شطر الباب وهو ملتفتٌ ينظر إلى قامته من الخلف حتى خرج.

أطلق لِقَدَمَيْه العنان، مضى يتجول بسجِّيَّة في الدروب، يقرأ ما تقع عليه عيناه، يمشي بقدمَيْن محترفتَيْن بين الدواب، يتأمل كل ما تقع أنظاره عليه، يتأمل بمفهومٍ جديد، بمشاعر جديدة. وهو يمشي، انتبه إلى حيواناتٍ تتهرَّب منه خائفة، وحيواناتٍ طفقت تمشي معه، تتقافز إليه وهي تُصدر أصواتاً غريبة كأنها ضحكات، يداعبها ضاحكاً ويستأنف مسيره التأملي.

غدا شغوفاً بقراءة أي شيء مكتوب تقع عليه عيناه، ينظر إلى تركيبة الحروف العربيَّة، إلى جمالية الكلمة، بدیع السطر، يتخيَّل المعنى الكامن في كل كلمة.

توقَّفت به قدماه قبالة لائحةٍ، تأمل ما كُتب عليها. تعلَّم بأن الكلمة هي معنى قبل أن تكون مجموعة حروف، معنى تغلَّف بغلاف من حروف، وكلّما أحسن فضَّ الحروف عَن المعنى، توصل إليه بشكلٍ جيّد. تذوّق عسل الكلمة وهو يقرأها. دخل إلى مكتبةٍ عامرةٍ بالكُتب، لفت نظره أنها أيضاً كانت ممتلئة بالقرود. شرع في نفذ الغبار المتراكم على الكتب. صعد السلم، نفذ الغبار عن الكتب المصفوفة في أعلى الرفوف. راوده شعورٌ بأن قلوب مؤلّفيها تنبض في ثنايا صفحات كتبهم. كلّما يحمل

كتاباً يشعر بأنه يحمل المؤلف بين يديه. يشعر بأنه مع أناس يمكن له أن يُحدثهم في أيّ وقتٍ يشاء، ويستجيبون له، أناس لا ينامون ولا يقربهم فتور، يلبثون يقظين نشيطين طوال الوقت كي يُقدّموا خدماتهم الجليّة للآخرين. في تلك اللحظات أدرك بعمقٍ أكثر من أيّ وقتٍ مضى مدى ما يتمتع به الإنسان من ذكاء، خال له بأنه أذكى مخلوق على الإطلاق في الكون.

نزل عن السّلم والقرود ترمقه، وقف وسط المكتبة، تخرّص وألقى نظرةً على الكتب بعد أن أنفض عنها الغبار.

خرج من باب المكتبة، امتدّت نظراته إلى الأبنية الشاهقة، إلى التنظيم الدقيق: ثمة أشياء تحتاج إلى وقتٍ فحسب يا ريان، يكون الوقتُ علاجها، وأشياء تحتاج إلى تفكير، أشياء تحتاج إلى سرعة تنفيذ.

ما يحتاج إلى وقت دعه للوقت، ما يحتاج للتفكير، فكّر به، ما يحتاج إلى سرعة تنفيذ، نفّذه دون تأخّر. عليك أن تميّز بين الأشياء ولا تمزجها ببعضها حتى لا تقع في شتاتٍ من أمر. همهمٌ بذلك، تقدّم إلى حمارٍ أبيض اللون كان يمشي في الشارع مع مجموعة حمير، امتطى ظهره، مضى به صوب قلب المدينة، ولج الطرقات والأزقة وهو يقرأ العبارات المكتوبة على الجدران، على الياфطات المعلّقة التي تحمل أسماء المطاعم، الفنادق، الحوانيت، المساجد، الكنائس، المصارف، المكتبات.

أدرك أن قراءة الكتب بنهم فتحت شهيتته على القراءة بشكل عام، قراءة كل شيء تقع عليه عيناه. رأى الحمار يمضي به إلى بداية جسرٍ ضخم، تركه يمضي إلى علو الجسر لعله يرى أحداً عليه، تأمل الطرقات والأبنية من الجسر الذي كان يزدحم بالدواب، وبين فينة وأخرى يلتفت ليرى طول الجسر وهو يمتد خلفه. همهم: أين ذهب كل أولئك الذين بنوا هذا الجسر، كل أولئك الذين مشوا عليه؟! طال به الطريق، أسرع بالحمار، وهو ينظر إلى الأمام، ثم يلتفت وينظر إلى الخلف. عند الوصول إلى نهاية الجسر، ولج إلى ركن آخر من العاصمة الكبيرة، تقدّم إلى بناء على واجهته يافطة مكتوب عليها: وزارة الداخلية.. رآه يغصّ بالإبل، تقدّم إلى آخر مكتوب على واجهته: قصر الحاكم.. رآه يضجّ ببينات آوى، تقدّم إلى آخر، قرأ: البرلمان.. رآه يكتظ بالسلاحف، إلى آخر، قرأ: وزارة الدفاع.. رآه يمتلئ بالغزلان، دنا إلى آخر، قرأ: مخازن الأسلحة.. رآه يزدحم بكلاطٍ سلوقيّة.

خطر له بأنّه تحوّل إلى حارسٍ لكل هذه الأفواج الهائلة من الحيوانات، جال بنظره لعله يلمح إنساناً ولو عن بُعد، يلمح رأس إنسانٍ من كل تلك النوافذ المطلة في الأبنية الشاهقة: هل من المعقول أن كل هذه الأبنية الضخمة كانت تضجّ بأفواج الناس، كل هذه العاصمة الضخمة لم تكن تسعهم وكانوا يُعانون أزمةً في السكن؟ كل شيء يتغيّر يا ريان كل شيء، لا شيء يبقى ثابتاً، لا شيء يبقى جامداً، هذا ما علّمتك إيّاه

الفصول، تبدّلات الطقس، وجود جدّك في حياتك، غيابه عنك، وأنت يا ريان كل يوم تتعرّف على أشياء جديدة لم تكن تعرفها من قبل، كل يوم ترى حيوانات جديدة لم تقع عينك عليها من قبل، كل يوم تكتشف أشياء فيك لم تكن تعرفها من قبل. كل لحظة جديدة لا تأتي إليك إلا وهي تحمل معها جديداً، إلا وهي تعبق برائحة جديدة، حتى أحلامك يا ريان، كل ليلة تحلم حلماً جديداً لم تحلمه من قبل. أنت كل شيء يا ريان أنت كل شيء، ودونك لا شيء.. لا شيء. أنت العالم، العالم هو أنت، أنت الشمس، أنت القمر، انظر حولك بانفتاح، اجث كل فكرة يأس من أعماقك واغرس بدلاً عنها فكرة إشراق.

دوماً تذكّر يا ريان بأن الحياة تخفي لك تحولات سوف تذهلك، مفاجآت لم تخطر لك على بال، تذكّر بأن جديد الحياة لا ينضب، وجديدك لا ينضب.

أحسّ بتنمّل في ساقيه، أدرك بأنه أطال الركوب على الحمار، نزل عنه بتؤدّة، أطلق سراحه، فجرى الحمار خبيباً في عرض الشارع.

عقد يديه خلف ظهره، استأنف المسير ببطء على قدميه سالكاً درب العودة إلى البيت كما لو أنه يمشي على كومة إبر وهو يُقاوم لسعات التنمّل.

بخ..بخ

في ذروة تأملاته وهو يمضي وسط أصناف الدواب، فوجئ بقبضتَيْن طَبَقَتَا على عَيْنَيْهِ مِنَ الخلف، ضَغَطَتَا عليهما بعزم، هبط قلبه، أبدى محاولات عديدة كي يفك نفسه، ولم يفلح.

تسمّر في أرضه فزعاً، ارتعدت فرائضه، لبث وإقفاً دون أن يعرف ما الذي سيفعل، راوده إحساسٌ بأنه وقع في فخٍّ وعليه ألا يستسلم ويخسر حياته بعد أن بدأ يكتشف جمالياتها، يستمتع بكل لحظةٍ من لحظاتها السحرية.

توقّف عن المقاومة، استجمع قواه، ثم انتفض على حين غرّة بكل ما أوتي من عزيمة، حرّر نفسه من القبضتَيْن. ابتعد مذعوراً كما لو أنه انتفض من قعرٍ جُبٍّ، تسمّر في أرضه وصدره يعلو ويهبط، اتسعت عيناه: سليمان.. قالها وهرع إليه يحتضنه بحرارة: أين كنت يا سليمان.. لماذا تركتني بعد أن اعتدت عليك؟.. أردف يقول وهو يُغالب نهنحات البكاء: ألا تذكر بأنك ذات يوم وعدتني بأنك ستبقى معي طول العمر ولن تتركني، يوم شبكت كفك بكفي؟

أرعى سليمان رقبتَه الطويلة عليه، ضمّه وقال: بخ.. بخ.. يومها كنتُ مستلقياً في فراشي أحاول النوم، لكن أصابني الأرق، وكلّما كنتُ أتقلب يمنة، أو يسرةً كان الأرق يزداد عليّ حتى شعرتُ بأنني لم أعد أحتمله.

كان الوقتُ ليلاً، وكان الصمتُ يخيمُ على كل شيء. ناديتُ عدّة مرّات، لكنك كنتِ نائماً، وجدّك أيضاً كان نائماً. نهضتُ من الفراش، مشيتُ في العتمة حتى وصلتُ باب الحوش، فتحتُ الباب، كانت العتمة تفتّرش كل شيء. مددتُ عدّة خطوات إلى الشارع، أحسستُ براحةً، مشيتُ ومع كل خطوة كنتُ أشعر براحةً أكثر وأن صخرةً تنزاح عن صدري شيئاً فشيئاً. واصلتُ المشي في حلقة العتمة، كان الشارع خالياً من الحيوانات، لم أسمع لها صوتاً، ولم أصطدم بحيوان، كنتُ لوحدي أمشي وكان يهبّ عليّ نسيمٌ منعش. لا أعرف أين وصلت، ضللتُ طريق العودة، وعندما أردتُ أن أقف، اكتشفتُ بأنني لم أعد قادراً على الوقوف، لم أعد قادراً على التحكّم بقدمي لأوقفهما وأجلس كي أرتاح. لبثتُ أمشي حتى طلوع الفجر، رأيتُ كيف أن الضوء أخذ يطرد العتمة من الطرقات، وكانت العتمة تهرب وتفسح له المجال. حاولتُ مراراً وتكراراً أن أقف ولو لحظة واحدة، لكنني لم أستطع. ارتفع قرص الشمس في السماء وأنا أمشي، لا أعرف أين وصلت، تهتُّ عن المكان كما لو أنني لستُ ابن هذه العاصمة، لكن أدركتُ بأنني أصبحتُ على تخومها وأنا أحاول الوقوف لأنني أحسستُ بعطشٍ شديد، وكذلك بجوع شديد. رأيتُ خيوط العتمة تمتدّ إلى الطرقات هذه المرة وتُطارِد بقايا الضوء الذي بدا يلوذُ بالفرار حتى استولت العتمة ثانيةً بحلكتها الشديدة على الطرقات. كم تمنيتُ فيما لو استطعتُ

الوقوف ولو للحظة واحدة، طويتُ ظهري، أمسكتُ بركبتي، ولم أتمكن من الوقوف. كانت خطواتي تمضي بي رغماً عني، كنتُ أحياناً أصطدم ببعض الأشياء، لكن سرعان ما كانت قدماي تنهضان، وتمشيان بجسدي. لا أدري بعد ذلك ما الذي حصل، لكنني فتحتُ عيني، كانت الشمس قد تكبدت السماء وتسلطت بأشعتها عليّ. كنتُ مُستلقياً على ظهري والعرق ينضح من كل عضوٍ فيّ بغزارة. نظرتُ حولي نظرات دائرية، كنتُ في مساحة أرض فسيحة، أدركتُ بأنني أصبحت خارج المدينة التي لاحت لي أبنيتها من بعيد. نهضتُ، وقفتُ على قدمي، خفتُ أن أخطو خطوة، وتخرج قدماي مرةً أخرى عن سيطرتي. مددتُ ربع خطوة بكل حذر، ثم نصف خطوة، ثم مددتُ خطوة كاملة بالقدم الثانية. توقفتُ، ثم خطوتُ مرةً أخرى خطوتين، توقفتُ، أدركتُ بأنني عدتُ أسيطر على قدمي، يَممتُ وجهي شطر الأبنية واستأنفتُ المشي.

قال: جدّي مات يا سُليمان وبقيتُ لوحدي.

رفع سُليمان رأسه، نظر في عينيهِ المغرورقتين بالدموع وقال:
لن أتركك بعد الآن.

شبك رِيَّان كَفَّهُ بكَفِّه ومضيا نحو البيت: كل يوم كنتُ أخرج
من البيت وأتوقَّع أن أراك.

قال سُليمان وهو يمشي بقامته الفارعة ورأسه يتمايل شطر
اليمين وشرط اليسار على رقبته الطويلة: بخ.. بخ.. ليتني

عرفتُ طريق العودة يا رِيَّان، أنا أيضاً كل يوم كنتُ أتوقَّع أن أراك.

قال: أين كنتَ تنام؟

قال: لا أحد لي.. كل يوم أنام في المكان الذي أنعس فيه.

قال: أذكر بأنَّني سألتكَ ذات يومٍ عن أهلك ولكنكَ لم تجبني.

تغيَّرت سحنة سُلَيْمان وهو يمشي.

استطردَ رِيَّان: اعذرني يا سُلَيْمان على السؤال.

لبث صامِتاً، فمازَحَه رِيَّان قائِلاً: بخ.. بخ..

طقطق سُلَيْمان أصابع يديه وقال وهما يمدَّان خطواتهما إلى

جَوف البيت: كنتُ في الثامنة مِن عمري أدرس في الصف الثاني

في سنة الفيروس، كان أبي عاطف يعمل مُديراً لمؤسسة

الإسمنت، وأمِّي ميسون تُدرِّس مادة العلوم لطلاب المرحلة

الثانوية، وكان لي أخ يكبرني بسنتين يدرس في الصف الرابع.

جلس على إسفنجة في الغرفة، وجلس رِيَّان بجانبه، قال

والدموع تنهمر من عينيه الصغيرتين الحمراوين: في البداية

اختفى أخي، بحثنا عنه في كل مكان، ولم نجده، ثم مات أبي،

ولحقته أمِّي. قتلها الفيروس اللعين دون رحمة، رأيتُ نفسي

وحيداً بلا أحد، كان الناس يتراخضون بهلَع في الشوارع وبين

لحظةٍ ولحظةٍ يتساقط شخصٌ فتجرفه الأقدام وكنتُ أركض

معهم لا نعرف إلى أين.

عدّل سُليمان في جلوسه بعد صمتٍ طال به، قال وهو ينظر إلى الفراغ:

لا أدري أيّ شيطان وسوسَ لذاك العالم الذي سلط علينا هذا الفيروس، كان غنياً، يعيش في بحبوحة، لكن عندما ولد له حفيد، راودته أفكارٌ بأن عدد سكان العالم صار فائضاً وإذا بقي الأمر على ذاك النحو، لن يجد الناس موطئ قدم يمشون فيه، ولا لقمة يأكلونها، فقرّر أن يصنع فيروساً، يقضي به على ثلاثة أرباع سكان الأرض، حينها سيعيش الملياران في سعادة ورخاء، وبذلك سيضمن لأحفاده مستقبلهم.

اقتنع العالمُ بالفكرة، شرع يعمل فيها بكل ما أوتي من خبرات حتى تمكّن من صنع هذا الفيروس، حدّد له سنة كاملة، وبعد مرور سنة، سوف يفقد فعاليته من تلقاء نفسه بكل الأحوال بعد أن يكون قد أدّى المهمة التي صُنِعَ من أجلها.

هزّ ريّان رأسه وهو ينظر إلى فيه ويصغي إليه بإنصاتٍ. أردف سُليمان: استهلّ العالمُ خطّته بالدول الأكثر سُكّاناً في العالم، فكانت محطّته الأولى الصين، ثم انتقل إلى الهند، بعد ذلك إلى البلاد النامية، والعالم الثالث.

كان يُراقب مدى انتشار الفيروس بين الناس والفتك بهم وهو مطمئن لأنّه كان قد صنع لقاحاً محصّناً ولقح نفسه وأهله به. لكنّ الذي حصل أنّه ذات يومٍ وبعد ستّة أشهر من انتشار الفيروس في كل أرجاء العالم، وخروجه عن السيطرة، فوجئ

بأعراض الفيروس تظهر على حفيده. كشف عليه بأدق تقنيات الكشف والتحليل، تبين له بأنه أُصيبَ بالفيروس، وقد تسرّب إلى خلاياه مع رائحة الغاز، فأعطاه العالم المزيد من اللقاح المحسّن بدقّة أكثر، بيد أن الفيروس لبث صامداً الأمر الذي جعله صامداً في وجه اللقاح حتى قضى على الحفيد تماماً أمام عيني العالم، إذ ذاك جنّ جنون العالم وانتحر على الفور تاركاً رسالة يائسة أفصح فيها عن كل الذي جرى معه بالتفاصيل.

صُدِمَ رِيّان بما سمع، وضع وجهه في راحتي كَفّيه، ترامى صوت سُليمان بعد قليلٍ من الصمت: من يومها أحياناً أنسى كل شيء، أفقد الذاكرة تماماً، تنتابني نوبات ضحك لا أستطيع أن أتحكّم بها. أحياناً يحضر زَحَم كل ذاك الماضي إلى ذاكرتي بقوة وتنتابني نوبات بُكاء لا أستطيع أن أتحكّم بها.

اسمي زاهر، هذا الاسم أسماه لي خالي أمجد الذي قتله الفيروس قبل أهلي بأيامٍ قليلة. انهمرت دموعٌ من عينيه وقال: أمّا أخي، فكان اسمه سُليمان. عندما ناداني جدّك بهذا الاسم، فزعت، تخيلت أخي سُليمان، نظرتُ إليه بطرفي عيني، حاولتُ أن أعرف ما يُفكّر به في سره، لكنّه في تلك اللحظات نهض وخرج يجلس في الحديقة.

قال رِيّان وهو ما يزال يضم وجهه بكفّيه: أما رأيتَ أحداً وأنتَ تدور يا سُليمان، العفو يا زاهر؟

قال: عندما أرى كل هذه الطرقات مليئة بأفواج الدواب،
وأتخيّل أنّها كانت مزحمة بحشود البشر، أُصابُ بهستيريا،
مقارنة مروعة يا ريان، محظوظٌ أنتَ لأنّ ذاكرتك نَجَتْ من هذه
المُقارَنة. مهما قلتُ لك فإنّ الألم الذي في القلب أعمق، كم
صرختُ بأعلى صَوْتي وأنا أحنّ للنوم في بيتٍ فيه أناس، ضجرتُ
النوم بين الدواب. في فتراتٍ مُتباعدة كنتُ أرى شخصاً يركض في
الشارع، أحياناً كنتُ ألحقه، وأحياناً كان يختفي ولا أعرف في
أيّ بناءٍ دخل. لم أترك شارعاً ولا زقاقاً في كل هذه العاصمة
الكبيرة إلّا ودخلته مرّات ومرّات، لا أحد يا ريان.. لا أحد.. عدد
قليل جدّاً ربما لا يتجاوز مائة شخص بقي في كل هذه العاصمة
الكبيرة.

طاقات خفية

شخص واحد استطاع أن يقلب كل شيء رأساً على عقب بالنسبة لريّان، شخص واحد ملأ عليه البيت، ملأ عليه البلاد، ملأ عليه العالم كله. تخيل الجمود الذي يكسو كل ذاك العمار وهو يخلو من حركة الإنسان، من رائحته. تخيل كم أن كل شيء يمكن له أن يتغير إذا استطاع أن يُعيد كل تلك الأعداد الهائلة من الفراشات إلى طفولتها الإنسانية.

أحس بأن عليه أن يُقدّم إلى الحياة أشياء جميلة، يُحسن إليها كما تُحسن إليه حتى يكون جديراً بكل تلك النعم الفائضة التي تنهال عليه يوماً إثر يوم.

كان ريّان جالساً في غرفته يقرأ كتاباً عندما خرج زاهر من البيت دون أن يشعر به، مضى بين الأبنية حتى وصل إلى البستان، ملأ صندوقاً من الرمان، والتفاح، والخس، والجزر، وعاد أدراجه إلى البيت، اتجه إلى الداخل، أعدّ جفنةً من خضار وفاكهة، حملها إلى حيث ريّان الذي كان غارقاً في قراءة الكتاب.

عندما دخل عليه الغرفة، رفع رأسه عن الكتاب، نظر إلى الجفنة وقال على الفور: شكراً لك يا زاهر، لو أخبرتني بأنك ذاهب إلى البستان، لأتيّت معك.

قال: ما أردتُ أن أقطعك عن القراءة.

حطّها زاهر على الأرض، وراح هو الآخر إلى رفّ الكتب، سحب كتاباً وعاد يبرك بجانب ريّان.

- نسيْتُ القراءة يا رِيَّان، لكن ما تزال ذاكرتي تحتفظ بالحروف. قالها وصار يُقَلَّب الصفحات.
- ما رأيك يا زاهر أن نضع برنامجاً يقرأ فيه كل واحد منّا في الأسبوع كِتَاباً؟
- فكرة رائعة يا رِيَّان.. أنا موافق، وأريدك أن تعلّمني العزف على العود.
- موافق. قالها وهو يقرض تَفَّاحَةً.
- البيت يحتاج إلى حملة تنظيف وترتيب يا رِيَّان.
- ليس البيت فقط يا زاهر، نحن أيضاً نحتاج إلى حملة تنظيف وترتيب.
- قالها رِيَّان ونَهَضَا على الفور، أحضرا طلاءً بلون البيج الفاتح، أخرجوا الأثاث إلى الحديقة، وشرعا في دهان البيت.
- فَرَزَا الغُرْف: واحدة لنوم زاهر، واحدة لنوم رِيَّان، واحدة لجلوسهما، واحدة للمطبخ. أعدّا ركنًا في الحديقة لإشعال الحطب والطبخ عليه.
- هل توجد في البيت قصاصة؟ قال زاهر وقد جَلَسَا على كرسيين وسط الحديقة
- توجد، لماذا تسأل؟
- أين هي؟
- في الدرج السفلي من خزانة الثياب.

غاب زاهر وعاد حاملاً القصاصة، دنا من ريّان، أمسك بيده وصار يقصّ له أظافره، وبعد أن انتهى، راح يقصّ له أظافر قدّميه قائلاً: أظافرك طالت كثيراً يا ريّان.

- نسيتُ أن لي أظافر عليّ أن أقصّها.

بعد أن انتهى من القصّ، أخذ يقطع له أصابع يديه إصبعاً إصبعاً، ثم أصابع قدّميه.

نظر ريّان إليه وقال: سأقول لك سرّاً يا زاهر.

رفع زاهر رأسه، نظر في عينيه وقال: ما هو يا ريّان؟

قال: أخوك سليمان ما يزال حياً.

هَبَّ وإقفاً على قدّميه وقال: كيف تقول هذا يا ريّان، ألا يكفي أن جدّك عندما ناداني بهذا الاسم جعلني أفزع، وأنت الآن تقول بأنّه حي، أخي مات منذ سنوات طويلة يا ريّان وعلينا أن ننسى هذا الأمر.

قال بلهجة واثقة: لا، لم يمت، سليمان ما يزال حياً.

نهض بعصبية، جذبه من كتفيه وقال: أين هو؟

قال: تحوّل إلى فراشة.

هزه من كتفيه عدّة هزّات وقال: هل تستهزئ بي يا ريّان..

كيف تحوّل إلى فراشة؟!

دفع يديه عنه وقال: هذه هي الحقيقة يا زاهر، ليس هو فقط، بل أطفالٌ كثر تحوّلوا في تلك السنة إلى فراشات، علينا أن نبذل كل ما بوسعنا حتى نعيدهم أطفالاً كما كانوا.

في تلك اللحظات، رفرفت الفراشة وئام وحطّت على غصنٍ من دالية العنب. قال ريّان وهو يشير إلى الفراشة: انظر إلى تلك الفراشة جيداً، هل رأيتها؟

نظر زاهر إليها وقال: نعم رأيتها، فراشة بيضاء. قال: تلك الفراشة هي طفلة اسمها وئام، كانت قادمة إليّ، لكنها حطّت على الغصن عندما رأتنا نتحدّث مع بعضنا. جلسا على كرسيّهما، فنظر زاهر إليه، ثم إلى الفراشة، فغمر فاه دَهْشاً. قال ريّان متّجهاً بكلامه إلى الفراشة: تعالي يا وئام، هذا صديقي زاهر.

فرّت الفراشة وحطّت على ركبة ريّان. نهض زاهر عن كرسيّه بفرع، ابتعد وهو يرمق الفراشة. ناداه ريّان قائلاً: تعال يا زاهر.. هل تخاف من فراشة؟ تنحنح وبعد لحظاتٍ عاد يجلس على الكرسي، مال برأسه إلى أذن ريّان وقال بهمس: قل لها إذا كان أخي قد تحوّل إلى فراشة، هل تستطيع أن تأتي به إلى هنا؟

سمعت الفراشة كلامه فقالت: ما اسمه؟

قال وهو يرمقها: سُليمان.

قالت: اسمه الثلاثي، لأن بعض الأسماء تتشابه عندنا.

قال وقد أخذ صوته يرتجف: سُليمان عاطف حسين.

قالت: اسم أمّه للتحقّق أكثر؟

قال: ميسون.

كان زاهر لا يفكر بالمستقبل وما يمكن أن يحدث له، يعيش بين الحيوانات كأبي حيوان، يتجنب التفكير. ذات يوم خطر له أن ينسى لغة الكلمات، صار يُصدر ثغاءً وهو يمشي بين الحيوانات، لأنه يميل إلى التآلف مع الأغنام أكثر من بقية الحيوانات. كان يبحث عن الأماكن التي تنام فيها الأغنام، فينام بينها، وكانت الأغنام تنظر إليه بارتياح وهو ممدد ويصدر ثغاءً.

كان بذلك يبتعد عن الأفكار المفزعة التي كانت تعتريه عندما يشعر بأن الجنس البشري سوف ينقرض خلال سنوات قليلة مع موت هذه القلة الباقية من بني البشر في الأرض، وسوف تبقى الأرض للحيوانات التي ترثها عن الإنسان وتملكها وتعيش فيها سعيدة بحيوانيتها.

ذات مرة بينما كان يمشي مع قطيع من الأغنام على يديه وقدميه، تقدّم إليه شخص، حدّق فيه، تلمّسه بحذر وهو يصدر ثغاءً. وضع كفه على رأسه، تلمّس شعره، فنهض بحركة مباغتة وانتصب واقفاً على قدميه، حدّق الرجل إليه بذعر وما لبث أن جرى بكل ما أوتي من سرعة كسهم طائش وهو يصرخ.

الآن تغيّرت حياته تماماً مع ريان، صار يهتم بنفسه، يُنظّم وقته، يتناول طعاماً طيباً، يشوي اللحم، يأكل الفاكهة، يقرأ، يستمع إلى العود، يعزف عليه، تعلّق بريان ولا يتصوّر بأنّه سيبتعد عنه. يصفن طويلاً في حياته المستقبلية خاصة عندما

يكون مستلقياً في فراشه، يبقى مفتوح العينين، تمضي به ساعات الليل وهو يصفن حتى يغلبه النعاس وينام.

أحسَّ ريّان بطاقات خفيّة تتحرك بداخله، أحسَّ بأنه لا بدّ أن يفعل شيئاً ما. أمسك بيد زاهر، أتى به إلى حديقة البيت. جلسا على كرسيين، رفع نظره إلى الفضاء وقال: أشعر بأنني أعيش عالّة على الحياة يا زاهر، أكل وأشرب وأنام، هذا استهلاك فقط يا زاهر، لا بدّ أن ننتج شيئاً، أن نُجمل حياتنا التي نعيش فيها. قال زاهر: لا تتصوّر كم أن الموسيقى غيّرتني يا ريّان، كما غيّرتني القراءة. تعلمتُ من هذه التجربة القصيرة معك بأن إنساناً يستمع إلى الموسيقى ويقرأ لا خوف عليه، ولا خوف منه. قال ريّان: ياه.. كم أن الحياة تسحرني.. أجل تسحرني.. ثمة طاقات غريبة تتحرّك بداخلي أشعر بأنني ملغومٌ بها ولا بدّ أن أجد لها متنفساً كي تخرج، أو ستنفجر بي وتقتلني.

هَبْ واقفاً على قدَميه بلياقة، قال: أسمع أجراساً تفرع في داخلي، تقول لي: هيا انطلق.. ماذا تفعل، لا تكن صنماً. تفتّح وجهه بشكلٍ غريب، أمسى كالقمر، فردّ ذراعيه، خفق بهما كجناحين، ازداد وجهه تفتّحاً، ارتفع رويداً رويداً عن الأرض وهو يخفق بذراعيه، نظر إليه زاهر بعينين جاحظتين يرتفع إلى السماء التي طغت عليها مسحة لazorديّة، هرول من البيت مشدوهاً، جرى في الشارع رافعاً رأسه يتتبعه بنظراته في الأفق،

صاح به: تعال يا ريّان.. لا تتركني وحيداً.. امتطى صهوة جوادٍ، جذب به تاركاً صوته يتعالى بهلجٍ: ارجع يا ريّان.. ارجع.. إلى أين ستذهب وتتركني؟!.

أراد في تلك اللحظات أن يطير بالجواد ويلحق به، يُعيده إلى البيت، لم يتخيّل بأنه سيستطيع العيش دون ريّان بعد أن تعلّق به وأمسى جزءاً من حياته.

كان ريّان وهو يحلّق في الفضاء، يشعر بقوة هائلة تندفع إلى بدنه، تنفتح مسامات جسده كما لم تنفتح من قبل، يُشحن بطاقة عجيبة من الحياة. يرنو إلى الأرض التي تبدو صغيرة، فيحلّق ويحلّق، تبدو أصغر فأصغر، تتحوّل أحجام الأبنية الضخمة إلى أحجام علب صغيرة، الشوارع الواسعة الطويلة إلى خيوط رفيعة.

حلّق مرتفعاً أكثر فأكثر، تحوّلت الكرة الأرضية كلّها أمام عينيه إلى حجم حبة جوز، ثم تقلّص حجمها أكثر، توارت عن عينيه تماماً. كان مستمتعاً وهو يلج عوالم أخرى، طبقات أخرى من الكون، تتراعى له كائنات أخرى، يشعر بأن طاقاته تتجدّد.

توقّف زاهر بجواده، رأى نفسه وسط أرض مُعشّبة، أحسّ بإنعاش وهو يمدّ بصره إلى جمال الطبيعة الخلّاب، يشم الروائح الزكيّة. تقدّمت إليه مجموعات من الطيور والزواحف،

لبث ينظر بدهشةٍ إلى ما هو فيه تارةً وتارةً يرفع نظره إلى
الأعلى حيث توارى رِيَّان.

بعد قليلٍ وهو ينظر، تراءى له رِيَّان من الأفق البعيد كحجم
نحلة، تسمَّرت أنظاره به، أخذ الحجم يكبر ويكبر.
أدار جهة الجواد وتتبعه حيث يحلّق حتى رآه يهبّط ويحطّ
في حديقة البيت كما يحطّ طائر الكركي.





الفصل الثالث

الشتاء

الجرو المريض

كان رِيَّان نائِماً عندما تناهى إلى سمعه أنيْنٌ ممطوطٌ يعلو ويخفت، فتح عينيّه، كانت العتمة تطبق على الغرفة فلم يستطع أن يرى شيئاً. أعاد غلق عينيّه ظانّاً بأنّه كان يسمع الأنين في الحلم، بيْدَ أن الأنين توالى إلى سمعه متداخلاً بجلجلة هطول المطر، أنيْنٌ كائنٌ يتوجّع ويستغيث. أرهف سمعه بشكل جيّد، أزاح البطانيّة السميكة عن جسده، قام من الفراش، حثّ خطاه إلى المطبخ حيث حجر الصوان وقطعة الفولاذ. كان الطقس شديد البرودة، تعالت نبراته في أحشاء العتمة الحالكة: زاهر.. زاهر.. انتظّر قليلاً، لم يسمع إجابة. ارتطمت قدمه بكرسيّ: زاهر.. قم يا زاهر.. دَوّت نبراته مرّةً أخرى وسط العتمة الحالكة.

استأنف مشيه كأعمى شطر المطبخ وقد شرع ذراعيه إلى الأمام كما لو أنّه يُزيح بهما شيئاً من أمامه. تلمّس باب المطبخ، أدخل جسده، غدا يتلمّس ما يقع تحت يديه حتى وقع على قطعة الفولاذ مع الحَجَر، أشعل ناراً في الموقد، فانتشر ضوءٌ أخذ يتراقص في البيت. يَمّمَ شطر غرفة زاهر، رآه مستغرِقاً في لفائف نوم عميق ساحباً البطانية السميكة إلى قَمّة رأسه. دنا إليه، استمع إلى غطيّطه الصادر من تحت البطانيّة. كشف عن وجهه، حرّكه بقوة رافعاً صوته: زاهر.. زاهر.. كان مستغرِقاً في نومه الثقيل دون أن يأبه بشيء. تركه ويمّمَ شطر الخارج،

فتح باب الحوش، كانت السماء تهطل بشدةٍ دون أن ترعد. دوى في جوف العتمة الحالكة أزيزُ ريحٍ فيها صرٌّ، لفحت وجهه كما لو أنها زمهرير، خطر له كم أن الليلَ غداً طويلاً كما لو أنه لن ينتهي، وكم أن النهار غداً قصيراً سرعان ما يستسلم لظلمات الغروب. استحثَّ خطاه على الرصيف وهو يرتجف ويدقُّ يداً بيد نحو مصدر الأنين الذي ما يزال يتعالى ويخفت، ألفى جرواً على الرصيف تحت المطر الذي كاد يغمره دون أن يجسر على النهوض.

التقطه بسرعةٍ، حمله على ذراعيه وجرى به تحت كثافة هطول المطر، وهبوب الريح العاتية التي كادت تفقده توازنه من شدتها. قاوم وهو يمسك الجرو، دخل البيت، أحسَّ بأنه تحوّل إلى كتلة ثلج، وضع الجرو على الحصيرة، جفّفه بقطعة قماش، أشعل مدفأة الحطب بجانبه واتّجه إلى غرفته، جفّف جسده وأطرافه، غيّر ثيابه المبلّلة. عاد مرةً أخرى إلى زاهر الذي كان غطيظه يتعالى، أزاح البطانية عنه، سحبه من كتفه بكلتا يديه حتى أخرجه من الفراش، عند ذاك تمتم زاهر بصوتٍ بليد وهو يُقاوم النوم: ماذا حصل يا ريان، أم أنني في حلم..؟ قال: لست في حلم يا زاهر.. هيا قم..

فتح عينيه: مازال الوقتُ ليلاً لماذا أخرجتني من الفراش في هذا البرد القارس.. هل اقتحم بيتنا وحشٌ مفترس؟! صمتَ للحظاتٍ وأردف يقول بلسانٍ ثقیلٍ: ما هذا الأنين؟!

قال: جرو مريض جلبته من الشارع.
 نهض زاهر وهو يرتجف من البرد، اتَّجها إلى الجرو الذي
 كان قد تقيأ وبال على الحصيرة، حملاه ووضعا في ركنٍ آخر،
 صارا يدلكان بطنه المنتفخ ويمسدان على رأسه وهو يئنّ وبين
 لحظةٍ وأخرى يصدر نباحاً كما لو أنّه يعطس.
 قال زاهر: يبدو بأنّه تسمّم.
 - كيف؟
 - أكل شيئاً مسموماً.

بعد مضيّ يومين على وجود الجرو في البيت، استفاق ريان
 باكراً، لفتَ نظره بياض يكسو زجاج النافذة، أزاح البطّانية عن
 جسده، نهض إلى النافذة، رأى من خلف زجاجها الثلج يكسو
 كل شيءٍ في حديقة البيت. اتَّجه إلى غرفة زاهر، كان مستلقياً على
 ظهره في الفراش تاركاً ذراعيه إلى جنبه، وكانت البطّانية
 أُزيحت عنه. نظر إلى عينيّه المفتوحتين، ندّه: زاهر.. زاهر.. لم
 يجب. تذكّر بأنّه لا يغمض عينيّه عندما ينام. ذات مرّة قال له:
 أنتَ تخدعني يا زاهر.
 قال: لماذا؟

قال: عندما تكون في فراشك، لا أعرف إن كنت نائماً أم يقظاً
 لأنك تترك عينيكَ مفتوحتين.

قال مازحاً: مرّر بكفّك أمام عيني لتتأكّد. ثم أردف يقول: عندما أنام، أغلق عيني لكن يبدو أنّهما تنفتحان بعد أن أغرق في النوم.

دنا من وجهه كثيراً، حدّق في عينيه المفتوحتين: زاهر.. زاهر.. قالها بخفوت دون أن يسمع منه إجابة، غطّاه بالبطانيّة، وخرج إلى الشارع. كان الثلج الذي هطل طوال الليل قد كسا كل شيء، تذكّر أنّه منذ عدّة سنوات رأى مرّة واحدة هطول الثلج بهذه الكثافة، يومها أحسّ بخوفٍ، لكن جده طمأنه قائلاً: سوف يذوب يا بُني مع الحرارة، لن يدوم طويلاً. يذكر كيف أن الثلج أخذ يذوب عن الأماكن شيئاً فشيئاً حتى توارى أثره تماماً خلال عدّة أيام. لا يدري لماذا هذه المرّة بدا منظر الثلج مُختلفاً بالنسبة إليه، ورغم شدّة البرد راوده شعورٌ غريبٌ بالدفء، بانشرّاح الصدر وهو ينظر إلى بياض الثلج.

مدّ خطواته إلى الشارع، مشى على الثلج برفقة الدواب القليلة، تأمّل البياض الناصع الذي غطّى كل شيء، رفع رأسه ينظر إلى نُدف الثلج الكبيرة التي تندف من السماء مثل ريش الحَمام عليه وعلى الدواب معاً.

راودته رغبة شديدة أن يُخلّق في الفضاء، ينظر من العلو إلى البياض العام الذي أطبق على كل شيء في العاصمة. خفق يديه، خفق قدميه كما فعل المرة السابقة، كم سيبدو المنظر بهيئاً، بياضٌ عامٌ ولا شيء سوى البياض، كل شيء يبدو بأنّه اختبأ

بصمّت تحت البياض، خفق وهو يتخيّل بأنّه سوف يطير، لكنه لبث في مكانه هذه المرّة. حاول أن يتذكّر ما الذي فعله في المرة السابقة حتى تمكّن من الطيران، حاول مراراً وتكراراً بيد أنّه لم يفلح.

لأوّل مرّة أدرك كم أن الطبيعة غنيّة، غنية بكل شيء معلوم وغير معلوم، ولا يمكن لها أن تفتقر إلى شيء. أدرك نظير ذلك كم أنّه غنيّ، يستمدّ غناه من غنى الطبيعة التي يعيش فيها. غنيّ بكل شيء، ولا يفتقر إلى شيء، لكن عليه أن يبقى دائم البحث عن الجديد في مكانن نفسه وهو يعيش في كنف طبيعة دائمة التجدّد.

خفق قلبه طرباً، سرّت في أوصاله حيويّة جعلته يشعر بإشراقٍ داخلي، ينظر إلى كل شيء نظرات لم يسبق له أن نظرها من قبل. وضع كفّه على قلبه، أدرك كم أن هذا الذي يخفق بين ضلوعه بمقدوره أن يجعله سعيداً، بمقدوره أن يجعله تعيساً. في تلك اللحظات الذهبية وهو سارحٌ في خيالاته، تلقّى على كتفه كتلةً من الثلج. جفل والتفت إلى الخلف فرأى زاهر يتقدّم إليه ضاحكاً، يحمل كمشةً من الثلج، يدعكها بين كفّيه على شكل كُرّة ويرميها بها. ابتعد عنه، حمل هو الآخر كمشة ثلج، وصارا يتضاحكان وأحدهما يرمي كُرّات الثلج على الآخر.

في صباح اليوم التالي كان الثلج قد ذاب بشكلٍ جزئيّ، وقف الجرو على قوائمه، نبج بشكل طبيعي، هزّ جسده عدّة هزّات



كما لو أنّه أنفض عنه بقايا آثار المرض. نظر إليهما ثم استدار
وهرول خبباً إلى الشارع وهو يلوّح لهما بذيله الطويل.

فراشتان

كان ريّان وزاهر يجلسان في البيت بجانب مدفأة الحطب
يفصّصان البزر بصميتٍ دون أن يتحدّث أحدهما مع الآخر.
خفق قلب زاهر بنشوةٍ عندما رأى فراشتين ترفرفان
وتدخلان إلى الغرفة، ربت على ساق ريّان وهو ينظر إلى
الفراشتين. صوّبَ ريّان نظره إليهما ترفرفان وقال: يبدو أن
وئام أتت بسليمان.

ابتسم زاهر ابتسامة مشعّة، سحب شفته السفلى إلى داخل
فمه، عضّ عليها. تخيل ملامح سُليمان، اتّجهت إليه إحدى
الفراشتين، رفرفت بجناحيها بالقرب من عينيّه للحظات، حطّت
على وجهه. لبث مذهولاً دون حراك وهو يُحاول أن ينظر إليها
بأطراف عينيّه دون أن يبدي حركةً: اشتقتُ إليك كثيراً يا زاهر.
قالت الفراشة.

استردّ نبرات الصوت كما لو أنّها كانت مسجّلة ومحفوظة في
تلايبب ذاكرته. قال: أنا أيضاً اشتقتُ إليك أكثر يا سُليمان،
اشتقتُ إليك أكثر من أيّ تصوّر يمكن أن يخطر لك، خاصّةً
عندما علمتُ بأنك ما تزال حيّاً يا أخي ويا نور عيني. بكى
بصوتٍ متقطّع، انفجرت دموعٌ من عينيّه بغزارة.

قالت: لا تبك يا أخي، أرجوك، هذا ليس يوم البكاء، عندما
أخبرتني وئام بمكانك، وأنتك ما تزال على قيد الحياة، لم أُصدّق
حتى أتيتُ ورأيتك بعيني.

جابت أنحاء وجهه وعينيه، أردفت تقول: كبرت يا زاهر، صرت أكبر مني بكثير، نبت لك ذقنٌ وشاربان، صرت رجلاً تشبه أبي، كما لو أنك صورة عنه، حتى صوتك أصبح غليظاً كصوته.

قال: ما يزال صوتك كما هو يا أخي، لم يتغير.
قالت: لأنني لم أكبر يوماً واحداً عما كنتُ عليه عندما تحوّلتُ إلى فراشة، ما أزال في العاشرة من عمري.

رفرفت وحطت على ظاهر كفه وقالت: شممتُ من وجهك رائحة أبي وأمي، شممتُ رائحتك، الآن أريد أن أنظر إليك.
قال: ليتني استطعتُ أن أراك يا أخي، طمئنني عنك، كيف تعيش؟

قالت: أعيش كبقية الفراشات على رحيق الأزهار.
قال: ألا تأكل شيئاً؟

قالت: الرحيق يغنيني عن كل ما في الأرض من طعام. إنه لذيذٌ جداً، ولا أشبع منه، في كل مرة أشعر بأن طعمه يكون ألد من المرة السابقة.

قال: خلال كل هذه السنوات هل مازلتُم جميعاً أحياء؟
قالت: نعم، ما نزال كما كنّا لا ننقص ولا نزيد، ولكننا لا نقبل على أنفسنا أن نكون متطفلين على الفراشات الأصلية ونستهلك طعامها فقط.

قال: ماذا تفعلون؟

قالت: بعد أن نتغذى على الرحيق، ننقل حبوب اللقاحات بأرجلنا حتى تتلاقح الزهور والنباتات وتتكاثر.

قال: هل لك أصدقاء من الفراشات؟

قالت: الفراشات أعمارها قصيرة يا زاهر، تعيش فقط أسبوعين، وهناك أنواع قليلة منها تعيش عدة أشهر كأقصى حد، لا نلحق أن نعقد معها صداقات.

استرد بذاكرته ما رأى من فراشات قليلة، كانت دوماً فراشة واحدة تدخل البيت، ترفرف على شخص، وتحطّ عليه للحظات، ثم تطير ثانية. ابتسم وقال: أتذكر يا سليمان عندما كانت تدخل فراشة إلى بيتنا، وكان أبي يقول بأنها تحمل معها بشارة خير، وخاصةً إلى الشخص الذي تحطّ عليه، أو تقترب منه كثيراً؟

قالت: نعم أذكر كل شيء يا زاهر، ذاكرتي لم تنس شيئاً. لذلك سألت فراشة ذات مرّة: هل صحيح أنكم تحملون البشائر السارة إلى الأشخاص الذين تذهبون إليهم في البيوت؟

قالت: صحيح، نحن لا ندخل إلى بيتٍ إلّا إذا حملنا إلى أهل البيت بشارةً سارة، يوجد لدينا دليلٌ خفيٌّ يرشدنا إلى البيت، وأحياناً إلى شخصٍ دون غيره حتى لو كان يجلس مع عشرة أشخاص. لذلك نحن مُرحّبٌ بنا أينما ذهبنا، ولا أحد يُخرجنا من بيته حتى نخرج من تلقاء أنفسنا، وعندها يودّ صاحب البيت فيما لو بقينا أكثر في بيته.

ثم ابتسمت وقالت لي: لو كان المَبْشَرُ يعلم ما نَزَفَ إليه من بُشْرَى، لوقف على قدميه احتفاءً بدخولنا، وعندما نخرج، لخرج يودّعنا حتى نتواري عن أنظاره وعاد مسروراً إلى البيت.

عادةً نحن نحمل البشرى بتحوّلاتٍ جديدةٍ ومهمّةٍ في حياة الشخص الذي نذهب إليه، تحوّلاتٍ تغيّر له حياته كلّها نحو الأفضل الذي كان يحلم به ويتمناه كلّ التمني، أو الذي لم يكن يخطر له على بال.

قال: اشتاقت عيناى لرؤيتك يا سُلَيْمان، اشتقتُ أن أضْمَكَ إلى صدري وأبكي، وأبكي.

قالت: ليت الأمر كان بيدي، لعدتُ في هذه اللحظة إلى بشريّتي يا زاهر.

قال: ما الذي يمنعك؟

قالت: حتى أستطيع أن أعود إلى بشريّتي، أولاً: لا بدّ أن نعود جميعاً، مثلما تحوّلنا جميعاً إلى فراشات، لا يمكن لفراشةٍ واحدةٍ أن تعود إلى بشريّتها بشكلٍ مفرد. وهذا يتطلّب منا أن نجتاز مرحلةً أساسيّةً وهي أن ترجح أصوات الفراشات التي تُريد أن تعود على أصوات الفراشات التي تأبى العودة.

قال: وهل هناك فراشات لا تُريد أن تعود إلى بشريّتها؟

قالت: نعم وهي حالياً تُشكّل الأكثرية بيننا.

قال: لماذا يا أخي؟

قالت: ما تزال مُرتعبة ممّا كان يلقي الأطفال من القسوة والانتهاكات، تخاف بأن الإنسان الجديد أيضاً سيمضي على خُطى الإنسان الذي راح ضحيّة الفيروس.

قالت الفراشة وئام التي كانت واقفة على ركبة ريّان وتستمتع معه إلى الحديث: هناك طريقة ستكون مُجدية إذا استطعنا تنفيذها أنتَ وريّان.

قال ريّان: ما هي؟

قالت: أكثر ما يبث الرعب فينا حتى هذه اللحظة هو وجود الأسلحة التي ما تزال موجودة بكثرة في العاصمة، وما تزال موجودة في بيوت بعض المتبقّين من الناس.

استغرب ريّان ممّا سمع، توجّه بالكلام إلى زاهر وقال: ما هي الأسلحة؟

قال: أجهزة صغيرة، كانوا يستخدمونها لقتل بعضهم البعض في لحظات، مجرّد خروج الرصاص الناريّة من السلاح كان يؤدي بحياة الشخص الذي يتلقّاها، لكنّها اختفت في سنة الفيروس.

قالت الفراشة وئام: صحيحُ كلامك يا زاهر، لكن بعض الناس لم يتخلّصوا منها، بل لَفَّوها بأقمشة ووضعوها في أماكن خفيّة من بيوتهم، وبعض الناس فيما بعد أخرجوها، هذه الأسلحة ما نزال نراها في أيدي بعض الناس عندما ندخل بيوتهم.

بعد صمتٍ قصيرٍ استطرَدَت تقول: نُريدُ أيضاً أن يُقبل ما
تبَقَّى من الناس في البلاد على قراءة الكتب والاستماع إلى
الموسيقى، وأن يحتوي كل بيت من بيوتهم على مكتبة كتب وآلة
موسيقىّة.

بيت جديد

خرج ريان من غرفته إلى الحديقة يحمل رواية مكتوب على غلافها: (نساء صغيرات). رأى زاهر يجلس على كرسي في الحديقة يسلق البيض.

جلس على كرسي تحت أشعة شمس الشتاء الدافئة بمحاذاة دالية العنب، فتح الكتاب وشرع يقرأ وبين لحظة وأخرى يشيح عينيه عن الكتاب، يُزيح سحابة دخان تهبّ عليه ويعود إلى القراءة.

قشّر زاهر بيضتين وجاء يجلس على كرسي إلى جانب ريان، ناوله بيضة، فأخذها ريان شاكرًا إيّاه، وصار يأكل ويقرأ. شمّر زاهر عن ساقيه وعن زنديه وقال: اشتقنا لهذه الشمس التي ظننا بأنها لن تأتي بعد كل تلك الأيام من الرعود والغيوم الداكنة.

أغلق ريان قباي الكتاب وقال: ما أزال أفكر كيف يكون السلاح، هل رأيت سلاحاً يا زاهر؟

قال: نعم، كان لدى أبي مسدّس في البيت؟
قال: لماذا؟

استردّت مخيلته ذاك المسدّس الذي كان أباه يدسّه تحت وسادته عندما كان ينام، أحياناً كان يُنظّفه، يفكّك بعض القطع منه، يزيّته. يذكر أنّ أباه ذات مرّة حمل المسدّس وخرج

من الغرفة إلى الحوش، وقف مع أمّه وأخيه سليمان ينظرون إليه، رفع بوز المسدّس إلى السماء وأطلق رصاصةً كتجربة. كان الصوت مُرتفعاً جدّاً، اخترق الأزيز أذنيه، ترك فيهما صدًى مدوياً. كان مسدّساً أسود اللون، صغير الحجم، أحياناً كان يمدّه إليه ويقول: خذه يا زاهر إلى أمك. كان يحمله، يتحسّس وزنه الثقيل الذي كان يبدو له أثقل من حجمه، كان ثقیلاً جدّاً ككتلةٍ من الرصاص المضغوط رغم أنّه كان بحجم الكفّ.

كرّر ريان السؤال: لماذا؟

قال: كان هناك أناس يحملون السلاح ليعتدوا به على الآخرين، وأناس يحملونه كي يحموا أنفسهم به. كُنّا دائماً نسمع أصوات الرصاص ونعرف بأن هناك اعتداءات حصلت. صمّتا هنيهةً يرمق أحدهما الآخر، نهض زاهر متّجهاً إلى الداخل، وما لبث أن رجع يحمل العود، جلس على كرسيّه، شرع ينقُر على أوتارٍ ويطلب من ريان أن يصوّب له الأخطاء التي يقع فيها.

غدا ريان يستمع ويشير له إلى بعض التصويبات، يستمع وينسجم مع أوتار العود، يكتشف كم أن الاستماع يحمل إليه متعةً مختلفة عن العزف.

قال زاهر: اعتدتُ على هذا العود، أصبح ركناً أساسياً في البيت، ليتني كنت قد تعلّمتُ العزف من قبل، كانت مفاهيم

كثيرة ستتغيّر لديّ، ليتني كلّما رأيتُ مكتبةً جلستُ وقرأتُ فيها ولو كتاباً واحداً، أنا مدينٌ لك يا ريّان بهذا التغيّر الذي حصل لي، كنتُ قد وصلتُ إلى آخر مفاصل اليأس في حياتي قبل أن أراك.

قال ريّان: أشياء كثيرة يا زاهر موجودة في الحياة ولا تلفت أنظارنا، أشياء غاية في الأهميّة ونعتبرها هامشية، أو أنّها لا تلزم، لكنّها كبيرة وثقيلة في مفعولها. كل صباح عندما أفتح عيني وأرى الضوء أشعر بأنّه حمل إليّ نفحةً جديدةً من الحياة لم يحملها صباحٌ قبله. عندما نعرف قيمة الأشياء فإنّها تفصح لنا عن مكانها السريّة، وعندما نتجاهلها ولا نعرف قيمتها فإنّ خسارتنا تكون فادحة دون أن ننتبه لها.

بعد أن انتهى زاهر من العزف، تناول ريّان العود مع كرسيّ، وحمل زاهر كرسيّاً وخرجاً إلى الشارع، برّك كلّ منهما على كرسيّه، عقد ريّان ساقاً على ساق وشرع يعزف. مع انتشار النغمات، بدأت حيوانات من أصنافٍ مختلفة تجتمع أمامه وهي تنظر إليه وتسمع، نهض زاهر من كرسيّه، دسّ جسده وسط الحيوانات، أبدى حركات بهلوانية ورقص على أنغام العود وهو يطرقع بالسبّابة والإبهام، أطلق ضحكات متعالية، أصدرت بعض الحيوانات أصواتاً غريبةً ورفعت قوائمها كما لو أنّها تُشاركه الرقص.

في أثناء ذلك كان رجل يمشي في أحد فروع الشارع، تناهت إلى سمعه نغمات العود، تسمّرت به قدماه، أرهف سمعه بإنصاتٍ، بعد قليل مضى نحو مصدر الصوت حتى دخل الشارع، نظر حوله في الشارع الطويل العريض، لفت نظره من بعيد حشدٌ من الحيوانات يقف في ركنٍ من الشارع. خطا صوبه، وقعت عيناه على شخصٍ يبدي حركات غريبة وسط حشد الحيوانات، ثم على شخصٍ آخر يبرك على كرسيٍّ ويعزف على العود.

خطرت له أفكارٌ غريبةٌ وهو منذ شهورٍ لم ير أحداً غير أفراد عائلته، انتبه زاهر إليه وهو يتقدّم، توقّف عن الرقص، أشار لريان كي يتوقّف عن العزف.

كان رجلاً في أربعينيّات العمر، حنطي البشرة، متوسط القامة، عريض المنكبين، يرتدي قبعةً تكشف عن فودين أشهبين، يرتدي سروالاً فضفاضاً بنّي اللون عليه قميصٌ أبيض متغصّن.

أدخله إلى الحوش، جلسوا في الحديقة وهما يحتفیان به بحرارةٍ، قال الرجل: هل أنتما لوحكما هنا؟ قال ريان: نعم، اسمي ريان، واسمه زاهر، وأنت من أين أتيت؟

قال: اسمي حازم، يقع بيتي في حيٍّ آخر. مللت القعود في البيت، بين فترةٍ وأخرى أطلع منه وأقول: لعلّي أرى أحداً أحكي معه، يحكي معي، لكنني أرجع إلى البيت بخفي حنين.

تنفّس الصعداء وأردف يقول بلهجة يشوبها القلق: أنا مسكونٌ بشبح الخوف، الخوف من كل شيءٍ حولي، من أي صوتٍ أسمعُه، من نقيق الضفادع الذي يرتفع ويخترق سمعي بعد منتصف الليل، حتى الصمت يتحوّل في أذني إلى ضجيج. خلال سنوات الفراغ هذه ضجرتُ من كل شيء، دوماً يذهب بي الشرود بعيداً: أين ذهب كل أولئك الناس.. كيف أصبحت الأرض فارغة من رائحة الإنسان، ما الذي يمكنني أن أفعل أنا الذي بقيتُ حياً مع عائلتي الصغيرة. الخروج إلى الشارع باتَ يرعبني لكنني مُجبرٌ عليه، هذه الحشود من الحيوانات الضخمة التي احتلت كل ركن من أركان عاصمتنا تُفزعني، أكوام الذهب وربطات النقود الملطّخة بروث الحيوانات وبولها في الشوارع تثير في نفسي الغثيان. أشعر بأنني مصباحٌ محروق، لا قيمة ولا وزن لي، أعيش بلا مُستقبل، لا شيء أنتظر، لا شيء ينتظرني. أذكر أن أبي عندما أُصيب بالفيروس، ضغطَ بكفه على كفّي وقال بكلماتٍ خرجت من فمه بالكاد: لقد تمادينا كثيراً يا بُني.. بطرنا كثيراً.

كانا يصغيان إليه بإنصاتٍ ويمدّان أنظارهما إلى وجهه المُمتقع كأنّه لم يضحك أبداً: إذا أدنتما لي سأجلب عائلتي ونسكن بجواركما، سأتخلّص من شبح الفرع الذي يستبدّ بي حين أشعر بأن لا أحد يمكن أن أستنجد به إذا أصابني أو أصاب أحد أفراد عائلتي مكروهٌ مفاجئ.

قال رِيَّان: نَرْحَبُ بِكَ وَهَذَا يَسَرُّنَا. نهضوا جميعاً، خرجوا إلى الشارع، مدّوا أنظارهم إلى البيوت: اختر بيتاً يُناسبك. قالها رِيَّان.

مسح حازم البيوت بأنظاره بيتاً بيتاً: ذاك البيت. قالها وهو يشير إلى بيتٍ يقع قبالتهم.

اتَّجهوا إليه على الفور، أخرجوا قطيعاً من الماعز كان منتشراً في الغرف ومساحات الحوش، تعاونوا في تنظيف البيت وترتيبه. رجع الرجل إلى بيته وفي صبيحة اليوم التالي أتى بزوجه أريام وكانت امرأةً بدينة، وابنته توليب التي كانت في الثانية عشرة من عمرها، وابنه راكان الذي كان في الثامنة من عمره.

الَفَنَام

دعا حازم جاريَه رِيَّان وزاهر لتناول طعام الغداء في بيته، فلبيا دعوته، دخلا البيت، عَرَفهما حازم على عائلته. رَحَّبَت بهما زوجته بابتسامةٍ مهذَّبة. كانت المرَّة الأولى التي يرى رِيَّان فيها امرأةً، كانت متوسِّطة القامة، بيضاء البشرة، ذات عَيْنَيْن لوزيَتَيْن، ترتدي فستاناً بنفسجياً. نظر إليها بذهولٍ، مرَّ نظره إلى شعرها المثبت بمشابك على شكل فراشات، صدرها المندفع إلى الأمام، القيراط الطويل في أذنيها، الأساور في يديها الصغيرَتَيْن الناعمَتَيْن. استمع إلى صوتها الناعم المختلف عَن صوت الرجل. في تلك اللحظات وهو ينظر إليها، علَت غصة إلى حنجرته عندما خطر له بأنَّ أمَّه كانت مثل هذه المرأة، أمَّه التي طالما كان يسأل جده عنها.

الآن ما كان يسمعه من جده تحوَّل إلى واقعٍ يراه رأي العَيْن، فهذه المرأة بشحمها ولحمها هي التي تلد الرجال، وتلد النساء أيضاً، انتبه بأن البيت فيه لمسات مختلفة عَن بيته، فيه أنس أكثر من بيته.

تحلَّقوا جميعاً حول السُّفرة المعدنية المُستديرة، قدَّمت لهم المرأة صحناً كبيراً فيه ثريدٌ من لحم الخروف. انتبه رِيَّان إلى خبز الصاج الذي سَكَبَ عليه الثريد في الصحن، ثم إلى أرغفة الخبز التي تم توزيعها أمامهم على دائر الصحن الذي تحلَّقوا جميعاً حوله. حمل رغيفاً، نظر إليه، كان جده يطبخ الثريد،

وفيما بعد صار هو الآخر يطبخه سواء من لحم الخروف، أو بعض الدواجن. لكن هذه هي المرة الأولى التي سيتذوّق فيها الخبز. نظر إلى حازم وهو يقطع جزءاً من الرغيف، يضع فيه قطعة من اللحم، يغمره في المرق ويأكل.

اقتدى ريان به وشرع يغرف الطعام وهو ينظر بدهشة إلى الوجوه، ينظر والغصة تكبر في حنجرته. أحسّ بأنه لم يعد قادراً أن يكتمها، فانفجر بكاءً وتمتم: ماما.. ماما.. ومع كل ترديد: ماما.. ماما.. أحسّ بارتياح وزوال الغصة عن حنجرته. كم تمنى في تلك اللحظات فيما لو كانت أمه حيّة، حاول بكل إمكانياته أن يتذكّر ولو ملمحاً بسيطاً من ملامحها، ولو نبرة من نبرات صوتها، بيد أن الذاكرة لم تسعفه.

عاد ريان إلى البيت، أغلق باب الغرفة على نفسه، استلقى في الفراش وما لبث أن غفا في قيلولة. ألقى نفسه في مساحة شاسعة من أرض كستها الخضرة والرياحين، تراءت في وسطها امرأة، تقدّمت إليه وهو ينظر إليها. كانت امرأة جميلة في مقتبل العمر، ذات خدين متوردين، وشعر أصفر متموّج انسدل على كتفها. تبادلوا النظرات، انفجرت المرأة بالبكاء، ضمّته إلى حضنها بلهفة وقالت: ابني ريان.. كم اشتقت إليك، لم تغب عن بالي لحظة واحدة.

قال: أمي.. أنتِ أمي.. لا أصدّق يا أمي هل حقاً أنني أراك الآن؟

قالت: عندما بكيّت اليوم في بيت جارك بكل تلك الحرقّة، سمعت بكاءك، رأيت دموعك في عينيك، أحسستُ بغصّتك.. توسّلتُ أن يسمحوا لي برؤيتك. قيل لي: قدّمي موقفاً أسعدت فيه إنساناً في الدنيا.

قلت بأنّ إحدى جاراتي كان اسمها شكرية، جاءتني ذات يوم وكانت تسكن بالأجرة مع طفلين لها وزوجها المصاب بالفالج. قالت بأن صاحب البيت يطلب أن تجدد العقد الذي انتهى بمدة ستة أشهر، أو عليها أن تخلي البيت. لم تكن المسكينة تملك أن تدفع له أجرة ستة أشهر مقدّماً.

يومها خلعتُ سلسلة الذهب التي كانت في رقبتني، قدّمتها لها كي تبيعها وتجدّد عقد الإيجار. عندها يا بُني، أروني المشهد في مقطع فيديو كما حصل بالضبط، وسُمح لي أن التقيك في المنام. كنتُ أنتظر أن تخرج من بيت جارك وتأتي لتنام كي نلتقي، أحذّثك وتحذّثني، أحضنك، أشمّك. يا بُني أنا سعيدة بأنك بدأت تقرأ وتتعلم العزف على العود.

قال: أريد أن أطمئن عليك يا أمي.

قالت: اطمئن يا ريان.. أنا في مكان جيّد مع صنفٍ من الناس كانوا يُسعدون الناس في الدنيا، يُقدّمون لهم الخدمات، كانوا يحبّون، ويتسامحون، وينتجون. وضعونا في هذا المكان الهادئ

يا بُني، وفَصَلُوا عَنَّا أولئك الذين كانوا يُفزعون الناس ويفسدون عليهم حياتهم، وكانوا يستهلكون ولا ينتجون، أخذوهم إلى مكان آخر، وجمعوهم فيه.

أروهم أماناً أعمالهم المشينة التي كانوا يرتكبونها، كانوا ثلّة من العاطلين عن العمل، من الشريرين. كنا ننظر إلى أشكالهم، نستمع إلى إجاباتهم المخزية ونقول: كم أربعونا، كم حرمونا من نِعَم كثيرة، كم ضَيّقوا علينا فسحة الحياة وجعلونا نعيش في أفق ضيّقة، كم حرّفوا من أناس، كم فتّتوا من عائلات، كم كانوا مُتطفّلين علينا وعلى الحياة، كم تسبّبوا في تخلفنا، في جهلنا، في دمارنا وإعطاء انطباعات سيّئة للعالم عَنَّا. كانوا يُصوِّرون لنا بأن سكّان العالم كلهم أشرار، وهم وحدهم الخَيْر، فتبيّن بأن العالم كله خير، وهم وحدهم الأشرار.

قال: هل أبي بخير؟

قالت: بخير وهو معي، لكنّه غاب عنيّ لمُدّة عشرة أيّام اشتقتُ له كثيراً فيها لأنّه تركني وجاء إليك.

قال: إليّ؟!

قالت: كان مشتاقاً إليك، تقدّم بطلبٍ حتى يراك، أرفق مع طلبه موقفاً إنسانياً كان فعله. قال فيه بأنّه ذات يومٍ كان يمشي على الرصيف، ووجد زجاجةً مكسورة، رفعها عن الرصيف ووضعها في حاوية قمامة، قال بأنّه فعل ذلك حتى لا يُصاب بها أحد. حصل على الموافقة واختار أن يأتي ويراك ليس مثلي في

الحلم يتحدث معك وتتحدّث معه. جاءكَ من خلال بلبل، عاش معك في البيت عشرة أيّام، اطمئنّ فيها عليك وعاد. قال: ذاك البلبل الجميل، هل كان أبي..؟ منذ عدّة أيّام لم أجد أراه في البيت، صرْتُ أفقده.

قالت: رجع من عندك مسروراً وقال لي بأنّه اطمئنّ عليك. أنّه كان يُقبِّلُك كل يوم، يشمّك، ينظر إليك. نعم يا بُني، كان ذلك اختياره، هنا لدينا حرية الاختيار فيما نريد بشرط أن نرفق مع طلباتنا مواقف إنسانيّة قدّمتها في حياتنا.

أحسّ ريّان بكفّ تربت على كتفه، فتح عينيه، وقَعَتَا على زاهر، قال: يا رجل أما وجدتَ غير هذه اللحظات أفقتني فيها؟ قال زاهر بخفوت: أخفض صوتك، جاء حازم وابنه في زيارة لنا.

قال: أين هما؟

قال: جلسا في الحديقة، قدّمتُ لهما كأسين من عصير البرتقال.

فركَ عينيه بباطن كفّه ونهض، رشق وجهه بقليلٍ من الماء وراح يسلم على الضيفين ويُرحّب بهما.

جلسوا جميعاً في الحديقة يتحدّثون عمّا يمكن أن يفعلوه، في تلك اللحظات دخلت زوجة حازم تحمل حزمة من أرغفة خبز الصاج. قالت: بعد اليوم سأحسب حسابكما أيضاً في الخبز.

تناول رِيَّان الخبز من يدها، وقال بأنَّه يُريد أن يتعلَّم صناعة الخبز.

قال حازم: لدينا قطعة أرض نزرعها بالقمح، نأتي به، نجرشه بالرَّحَى، وتخبز أم راكان الخبز على الصاج، تخبز كفاية نحو شهر، هذه الأرغفة هي يابسة، قبل الأكل بقليل، نُخرج كفايتنا، نبخَّ عليها بخَّات ماء، فتُصبح طريَّة.

قال رِيَّان: أريد أن أتعلَّم هذه الطريقة كي أصنع الخبز بنفسى بعد الآن.

انطلقوا إلى بيت حازم، أتت المرأة بالقمح، وبدأت تجرشه بالرَّحَى حتى تحوَّل إلى طحين. ثم أوقد النار تحت الصاج، وصارت تخبز. عند ذاك أدرك رِيَّان بأن جده لم يكن قادراً على بذل هذا العمل الشاق بسبب شيخوخته.

قال حازم وهم يقفون في فناء بيته: يا جماعة أنا واثق بأننا لسنا الوحيدين في هذه العاصمة، يوجد أناس، لكنَّهم يخافون الخروج، وأنا كنتُ خائفاً لا أخرج إلا عند الضرورة أو عندما أضجر من الجلوس في البيت. خلال هذه السنوات صادفتُ بعض الأشخاص في الشوارع، لكن كانت لقاءات سريعة. ثم نظر إلى رِيَّان وقال: صدَّقني لولا أنَّني سمعت الموسيقى التي كنت تعزفها، ما تجرَّأت وأتيت.

تقدَّمتُ إليكما ومع كل خطوة كانت النغمات تُشعرنى بطمأنينةٍ أكثر. قبل أن يهجم علينا الفيروس اللعين، كنتُ أحياناً

أستمع إلى الموسيقى تنبعث من أماكن مختلفة، لم أكن أبه بها، لكن الآن شعرتُ بأنها كانت تعبق بالطمأنينة.

قال ريّان: هي غيّرتني أيضاً عندما عزفتُ على العود أوّل مرّة، كنتُ أشعر وأنا أعزف وأستمع بأن صوتاً خفياً من الإنسان ينبعث من أعماق الأوتار، ثم دخلتُ إلى عالمٍ آخر هو عالم القراءة. بعد أن أتممتُ قراءة الرواية الأولى، لم يعد يفتني يومٌ دون أن أقرأ فيه.

عند ذاك وضع حازم يده على يد ريّان وطلب منه أن يعطي دروساً في القراءة لراكان وتوليب، فأبدى ريّان موافقته، وخصّص أوقاتاً صار يأتي فيها إليهما في البيت، إلى جانب أوقاتٍ يجتمعون فيها في بيت ريّان ويعزف لهم على العود.

كانت فرصة لحازم وزوجته لقراءة الكتب، غدت القراءة تعزّز مشاعر التآلف بينهم، وبين فترةٍ وأخرى يأتي ريّان لهما بكتبٍ جديدةٍ فرغ من قراءتها ويحثّهما على قراءتها، ثم يتناقشون عن مضامينها. وكان العودُ إلى جانب الكتب يرسّخ فيهم مشاعر المحبة والتكاتف مع بعضهم بعضاً.

أدركوا بأن لا أحد لهم سوى بعضهم، لا قوّة لهم سوى قوّة بعضهم وأن المحبة هي سبيلهم الوحيد لتجنّب الانقراض، المحبة التي تضيء الأنس والدفء إلى الحياة. أصبح أحدهم يُحافظ على حياة الآخر كما يُحافظ على حياته، يُحافظ على سعادة الآخر كما يُحافظ على سعادته.



الفصل الرابع

الربيع

تشابك الأيدي

كان الشتاء يلوّح لآخر أنفاسه بالوداع، يسحب أمطاره،
ورياحه، صقيعه، ورعوده، ويُسلم الطبيعة للربيع الذي شرع
ينثر مُقدّمات روائحه المنعشة في الطرقات، وأخذت زهوره
تتفتّح باستحياءٍ وتنثر غبار طلعتها بين غصون الأشجار التي
اكتملت بأوراقها الخضراء بعد أن كانت عارية تماماً ويابسة
كما لو أنّها لن تنبت أبداً.

تذكّر ما كان جده يقول عندما يقبل الربيع:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاحِكاً
مَنْ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى
أَوَائِلَ وَرِدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نَوْمًا
يُفْتَقُّهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ
يَبْتُ حَدِيثًا كَانَ أَمْسٍ مُكْتَمًا
وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ لِبَاسَهُ
عَلَيْهِ كَمَا نَشَرْتَ وَشِيًّا مُنَمَّمًا
أَحَلَّ فَاَبْدَى لِلْعُيُونِ بِشَاشَةً
وَكَانَ قَدْزَى لِلْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحَرَّمًا
وَرَقَّ نَسِيمُ الرِّيحِ حَتَّى حَسِبْتَهُ
يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْيَةِ نَعْمًا
فَمَا يَحْبِسُ الرَّاحَ الَّتِي أَنْتَ خِلُّهَا

وَمَا يَمْنَعُ الْأَوْتَارَ أَنْ تَرَثَنَا
وَمَا زِلْتَ شَمْساً لِلْنَّدَامَى إِذَا انْتَشَوَا
وَرَا حَوَا بُدُوراً يَسْتَحِثُّونَ أَنْجُمَا
تَكَرَّمَتْ مِنْ قَبْلِ الْكُؤُوسِ عَلَيْهِمْ
فَمَا اسْطَعْنَ أَنْ يُحْدِثْنَ فِيكَ تَكْرُماً.

كان جده يترنم بهذه القصيدة وهو يُرددها بأسى ويتأثر بكلماتها بين حينٍ وآخر في بدايات الربيع. ومن كثرة ما سمعه يشدو بها، فقد حفظتها ذاكرته، وأحياناً كان يُرددها معه. في الصباح الباكر عندما أخذت الشمس تبسط خيوط أشعتها على الطرقات بدفء، انطلق ريان وزاهر مع حازم وابنه راكان شطر العاصمة، مضوا جميعاً في عرض الشارع الطويل، دخلوا الأزقة والتفرعات وهم يشبكون أياديهم ببعضها البعض، يرفعون أصواتهم، يُنادون الناس كي يخرجوا من بيوتهم وينضموا إليهم.

كانَ رِيَّانُ يَمْشِي وَهُوَ يَكْتَشِفُ الْفَرْقَ الْمُذْهَلَ بَيْنَ مَشْيِهِ لَوْحَدِهِ، وَمَشْيِهِ مَعَ مَجْمُوعَةِ أَشْخَاصٍ، اعْتَرَاهُ إِحْسَاسٌ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ بِأَنَّ الْعَالَمَ امْتَلَأَ بِالنَّاسِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ عَادَتْ إِلَى طَبِيعَتِهَا، حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ بَدَأَتْ تَرْمَقُهُمْ بِاسْتِغْرَابٍ، تَفْسَحُ لَهُمُ الطَّرِيقَ وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُ ذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ يَمْشِي لَوْحَدِهِ، أَوْ يَمْشِي بِرَفَقَةِ جَدِّهِ.

تَسَمَّرَتْ بِهِمْ أَقْدَامُهُمْ بَغْتَةً عِنْدَمَا تَعَالَى صَوْتُ مَنْ بِنَاءٍ مُرْتَفِعٍ، مَدُّوا أَنْظَارَهُمْ إِلَى الطَوَابِقِ، رَأَوْا رَأْسَ شَخْصٍ يَطْلُ مِنْ نَافِذَةٍ فِي طَابِقٍ عَلَوِيٍّ، لَوَّحَ لَهُمُ الشَّخْصُ بِيَدِهِ، فَلَوَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ لَهُ. لَبِثُوا وَاقِفِينَ حَتَّى خَرَجَ الرَّجُلُ كَمَا لَوْ أَنَّ الْبَابَ لَفَظَّهُ مِنْ أَحْشَاءِ الْبِنَاءِ. اتَّجَّهُ إِلَيْهِمْ بِخَطَوَاتٍ مَهْرُولَةٍ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَهُمْ بَعْدَةُ خَطَوَاتٍ وَقَفَ يَمْسَحُ وَجُوهَهُمْ وَجْهًا وَجْهًا بِعَيْنَيْنِ مُسْتَكْشِفَتَيْنِ. تَقَدَّمَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ، يُصَافِحُهُ وَيَشُدُّ عَلَى يَدِهِ. كَانَ رَجُلًا مُتَوَسِّطَ الْقَامَةِ أَحْمَرَ الْوَجْهِ، شَعْرُهُ أَصْفَرُ دَاكِنٍ، ظَهَرَتْ تَجَاعِيدٌ عَلَى صَفْحَةِ وَجْهِهِ رَغْمَ أَنَّهُ بَدَأَ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ. قَالَ: مِنْذُ سِنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ لَمْ أَرْ هَذَا الْمَنْظَرَ.. أَرْبَعَةُ أَشْخَاصٍ يَمْشُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ فِي الشَّارِعِ! أَرْدَفَ يَقُولُ بِشَهْقَةٍ بِكَاءٍ حَارَّةٍ: ذَكَّرْتُمُونِي بِتِلْكَ الْأَيَّامِ الْخَوَالِي الَّتِي كُنَّا نَعِيشُهَا وَلَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ قِيَمَتَهَا. لِحْقَهُ حَازِمٌ بِالْبُكَاءِ، فَاضَتْ عَيْنَا زَاهِرٍ بِالدَّمُوعِ، عَلَتْ غَصَّةٌ حَنْجَرَةً رِيَّانٍ، بَكَى رَاكِبًا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. بَعْدَ قَلِيلٍ كَفَكَفَ الرَّجُلُ دَمُوعَهُ، احْتَضَنَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا بِحَرَارَةٍ، شَبَكَ يَدَيْهِ بِأَيْدِيهِمْ وَمَضَى بِرَفَقَتِهِمْ فِي كِبْدِ الطَّرِيقِ.

لَمْ يَكُنْ رِيَّانٌ لِيَصْدِّقَ مَا هُوَ فِيهِ، خَالَجَهُ إِحْسَاسٌ لِلْحَضَائِثِ بِأَنَّهُ فِي حِلْمٍ، تَلَمَّسَ جَسَدَهُ، نَظَرَ حَوَالِيَهُ. هَمَسَ لِزَاهِرٍ: هَلْ نَحْنُ فِي حِلْمٍ يَا زَاهِرُ أَمْ فِي وَاقِعٍ؟ أَجَابَهُ زَاهِرٌ بِهَمْسٍ: سَبَقْتَنِي يَا رِيَّانُ، كُنْتُ عَلَى وَشْكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ذَاتَ السُّؤَالِ.

بعد قليلٍ وهم يمشون ويتحدثون، والحيوانات بكافة أصنافها تفسح لهم المجال، فوجئوا بسماع صوت شخص يدوي خلفهم: توقّفوا.. توقّفوا.. التفتوا، وقعت أنظارهم على شخص يهرع إليهم.

وقف الرجل قبالتهم بقامته القصيرة ووجهه الصارم وهو يلهث، مرّ نظراته على وجوههم وجهاً وجهاً. بعد لحظاتٍ قال وقد أظهر عن أثر سنّين ساقطين من رتل أسنانه السفليّة: لا أصدّق ما أرى.. هل أنا حقّاً بين جماعة من بني البشر؟!..

قالوا بصوتٍ واحدٍ: نعم نحن بشر، نبحت عن البشر، سنبنّي الحياة من جديد، لن نستسلم.

احتضنهم واحداً واحداً، قبّلهم، شبك يديه بأياديهم ومضى وهو يشعر بأنّه انتشل من مُستنقعٍ كان على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فيه.

استأنفوا مسيرهم، وقامت الناس تخرج بين ساعةٍ وأخرى من مخابئها وتنضمّ إليهم.

عندما تماثلت الشمس للمغيب، توقّف ريان بهم وقال: لديّ خبرٌ سارٌّ لكم جميعاً.

قالوا بصوتٍ واحدٍ: ننتظر على أحرّ من الجمر كي نسمعه منك.

قال: سوف نجتمع أمام بيتي صباح يوم الغد حتى أرفّه لكم.

عودة الفراشات

في صباح اليوم التالي، خرج الناس من بيوتهم صوب بيت ريّان، تجمهروا في ساحة البيت، خرج ريّان برفقة زاهر.

قال وهو يوزّع نظراته على وجوه الناس: عدنا الآن كما ترون لا يتجاوز أربعين شخصاً بين رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وشيوخ، لكننا نستطيع أن نفعل الشيء الكثير الذي يجعل شوارعنا تمتلئ بالناس، وتعود الألفة إلى الحياة.

قالوا: ما هو يا ريّان؟

قال: جميع الأطفال الذين كانوا اختفوا في سنة الفيروس، ما يزالون أحياء.

بدت على وجوههم علامات استغرابٍ وهم يُصوّبون نظراتهم إليه، وشوش بعضهم لبعض.

استطرد يقول: لا تستغربوا.. أجل لقد تحوّلوا إلى فراشات، هذه هي الحقيقة. لكن التحدي الكبير الذي نواجهه الآن هو: كيف يمكننا أن نُقنعهم بالعودة إلى ما كانوا عليه أطفالاً؟.

قالوا وهم ما يزالون ينظرون إليه باستغراب وقد اتّسعت عيونهم: كيف؟!

قال: أن ننزع كل الأسلحة الموجودة في بيوتنا وفي الأماكن التي تتواجد فيها.

قالوا: نحن على أهبة الاستعداد لهذا العمل.

قال: هيا إذن نبأشر منذ هذه اللحظة.. لا نريد أن نُضَيِّع الوقت سدى.

انطلقوا جميعاً بهمةً عاليةً يتعاونون فيما بينهم للبحث عن الأسلحة، وانتشالها من أيِّ مكان تكون متواجدة فيه، يدخلون الأماكن يفتشونها ركناً ركناً. لبثوا في بحثهم الحثيث حتى المساء، جمعوا ما أخرجوا من أسلحة في ساحة كبيرة، وعادوا إلى بيوتهم ليستأنفوا عملية التنقيب بشكل يومي. انضم إليهم أناس مع الأيام، لم يترك أحد سلاحاً في بيته إلا أخرجته. مضت عشرة أيام بلغ عدد الأشخاص فيها مائة شخص، تجمعوا في ساحة الأسلحة، جمعوها على خيول وذهبوا إلى النهر الكبير، رموها فيه ثم عادوا.

عند ذاك اكتشفوا لأول مرة كم أنهم كانوا ضعفاء، جُبناء من خلال وجود تلك الأسلحة في بيوتهم، أدركوا أن قوتهم الحقيقية تكمن عندما يكونون مع بعضهم البعض، وأن السلاح الذي كانوا يعتبرونه قوة لهم، هو في الواقع كان ضعفاً عليهم.

ارتاحوا يوماً، ثم في اليوم التالي شرعوا في إنشاء مكتبة منزلية في كل بيت من بيوتهم إلى جانب تزويد كل بيت بألة موسيقية. كانوا ينظرون إلى بعضهم على أنهم عائلة كبيرة واحدة موزعة على بيوت سواء أكانت هذه البيوت قريبة أم بعيدة عن بعضها. كان أحدهم يحرص كل الحرص على حياة الآخر كما يحرص على حياته، كانوا وهم يعملون ينظرون إلى بعضهم نظرات

محبة، نظرات تآلف، يشعرون بالأمان، بالأنس عندما يكونون مع بعضهم. يشعر أحدهم بأن الآخر هو قوّة حقيقيّة له، كما أنّه قوّة حقيقيّة للآخر، أنّه مهما بدا قوياً فإنّه في الواقع ضعيفٌ كل الضعف بدون الآخر.

لبثوا مستمرّين في العمل، تجاوزوا المخاوف التي كانت تنتابهم في السابق، قَسَمُوا أوقاتهم بين إصلاحات البُنى التحتيّة والمرافق العامّة في مدينتهم، وبين القراءة. اتفقوا فيما بينهم على أن يقرأ سكّان كل بيت جميع الكتب الموجودة في مكتبة بيتهم، ويتعلّم شخصٌ واحدٌ على الأقل من كل بيت العزف على الآلة الموسيقية الموجودة في البيت. خَصَّصَ رِيّان مع زاهر جزءاً من وقتها لتعليم الذين ما كانوا يُجيدون القراءة، فأصبحوا يأتون وفق برنامج يوميّ إلى بيت رِيّان، يتلقّون دروساً في القراءة والكتابة.

بعد ستّة أشهرٍ من العمل الدؤوب، جاءت الفراشة وئام إلى رِيّان، أخبرته بأن مجموعة من الفراشات كانت تتابع التطورات الجديدة، وبعد قيامها بجولاتٍ عديدة على البيوت، وتحقّقها من هذه المُستجِدّات الملموسة التي طرأت عليهم، أجرت تصويّتاً جديداً، فكانت النتيجة أن أغلبية الفراشات صوتت لصالح العودة إلى هيأتها البشريّة.

أحسَّ رِيَّانُ بأنَّ شمساً كانت غائبة منذ دهرٍ، بدأت تبعث خيوطها الأولى إلى ظلمةٍ دامسةٍ كانت مخيِّمةً عليه، هرع إلى زاهر الذي كان جالساً في غرفته يقرأ، أخبره بما قالت له الفراشة وثام.

ابتسم وبكى في لحظةٍ واحدة، نهض، ضمَّ رِيَّانُ إلى حضنه بقوة، قال: هل يمكن لكل تلك الحياة التي اختفت عنا أن تعود. كل تلك القامات التي كانت تملأ الشوارع والبيوت تعود كما كانت. بلع ريقه وأردف: لو كان الإنسان يعلم قيمة الإنسان الحقيقيَّة، لما اكتفى بمصافحته عندما يلتقيه، بل لقبل أحدهما يدي وقدمي الآخر.

اتفقا أن يُقيما احتفالاً يليق بهذه المناسبة التحويلية الكبرى، طافا على جميع البيوت، أخبرا الناس بضرورة التواجد صباح يوم الغد أمام بيت رِيَّان. عندما أقبل الليل، لم يستطع رِيَّان أن يخلد إلى النوم، جلس مع زاهر الذي كان صامتاً يتخيَّل بدوره ما الذي سيحصل صباح الغد، يتخيَّل بأنه سوف يلتقي بسُلَيْمان. لبث الصمت مطبقاً عليهما حتى تسرَّب الضوء من النافذة إلى الغرفة، أدركا بأن الموعد قد أصبح قاب قوسين أو أدنى. اغتسلا جيداً، ارتديا ثياباً أنيقة. أخذ الناس يتوافدون إليهما، صفّاً الكراسي بشكلٍ مُتناسقٍ على الرصيف كي يجلسوا عليها. وكان حازم مع زوجته قد شطَّفا الساحة بشكلٍ جيِّدٍ لإقامة الاحتفال الذي سوف يحصل فيه هذا الحَدَث الكبير.

جلس رِيَّان على الكرسي المخصَّص له على الرصيف، ضمَّ العود إلى حضنه، نَقَرَ عِدَّة نقرات على الأوتار، ثم شرع يعزف والناس يستمعون إليه، يعزف بشجْن ومهارة كما لو أنَّه في مهرجان، يشعر بأنَّه يُعبِّر عن مكنونات نفسه، عن مشاعره، عن أحلامه، عن رؤيته للحياة، يقول من خلال ترنيمات الأوتار ما لا يستطيع أن يقوله بالكلمات، يكتشف الفرق الشاسع بين أن يعزف لنفسه وأن يعزف لمجموعة أشخاص يستمعون إليه ويتفاعلون مع ما يستمعون، يُقارن ذلك بحديثه لنفسه وحديثه مع مجموعة من الناس.

رُفِرت فراشتان في الساحة، بعد لحظاتٍ لحقت بهما فراشات أخرى، اكتظَّت الساحة، اكتظَّ الشارع بطوله وعرضه بفراشات بيضاء، بدا المنظر مُلفتاً، انتشرت الفراشات في كل مكان، فوق الأسطح، فوق الجدران، على غصون الأشجار، رُفِرت أفواجٌ هائلةٌ منها في الأجواء.

اندَمَجَ الناسُ مع الألحان التي يستمعون إليها، يشعرون بأنَّه يعزف على خفقات قلوبهم، يتأثَّرون مع كل نغمةٍ وكل إيقاع، ينظرون بدهشةٍ إلى الأعداد الكبيرة من الفراشات.

في غمرة ذلك رُفِرت فراشةٌ أمام رِيَّان، ابتسم وهو ينظر إليها، عرف بأنَّها الفراشة وئام، وسوف تعود إلى طفولتها، سوف يراها رأي العين.

تعلّقت أنظاره فيها، في لحظاتٍ قليلةٍ تحوّلت أمامه إلى طفلة شقراء ذات عَيْنَيْنِ زرقاوين. دنت إليه وقالت: لا أهل لي يا رِيّان، أنتَ كل أهلي. قال: أنا أيضاً لا أهل لي، أنتِ كل أهلي. إلى جانبه رفرفت فراشةٌ أمام زاهر وهو ينظر إليها بدهشةٍ وما لبثت أن تحوّلت أمامه إلى طفلٍ، ألقي نفسه في حضنه. بدأت الفراشات تتحوّل إلى أطفالٍ رويداً رويداً والناس ينظرون إليها بدهشةٍ، ملأوا المكان بقاماتهم كما لو أنّهم أتوا من كوكبٍ آخر، كانوا أطفالاً في أعمارٍ مُتقاربةٍ يرتدون ثياباً أنيقة، تفوح منهم روائح منعشة كأنّهم في صبيحة عيد.



نبذة عن المؤلف

مواليد مدينة الحسكة - سورية 1964
صدرت له أول مجموعة قصصية (سيمفونية الصمت) سنة 1989 عن دار المجد بدمشق، سنة 1992 نال عضوية اتحاد الكتّاب العرب، جمعية القصة والرواية في سورية.
من أعماله: (عالم الكتابة القصصية للطفل) صدر سنة 2010 عن سلاسل كتب المجلة العربية التي تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام في المملكة العربية السعودية. رواية (إمام الحكمة لقمان الحكيم) صدرت عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت سنة 2010. غيومٌ من الشرق، مجموعة قصصية عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق سنة 2006. مدار اللسان - مجموعة قصصية، دار الكافي - الجزائر 2021. سر الخرزة الزرقاء، مجموعة قصصية عن وزارة الثقافة والسياحة والآثار - بغداد 2022. القطّة تابسا، رواية عن دار اسكرايب للنشر والتوزيع، القاهرة 2024.
فازت روايته (خلف الجدار) بجائزة مجلة دبي الثقافية الثانية، سنة 2002. حصلت قصّته (خورشيدة) على جائزة نادي حائل الأدبي في المملكة العربية السعودية سنة 2004، حصلت روايته (منارة النبوة) على منحة البدر، برعاية ولي عهد الفجيرة سنة 2023

شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية، منها: مؤتمر مركز توثيق وبحوث أدب الطفل حول (أدب الطفل والجمهورية الجديدة) المنعقد في القاهرة برعاية وزارة الثقافة المصرية في 21، 22 نوفمبر 2022 يبحث بعنوان: (مشكلات الإنتاج في أدب الطفل المحلي والمنافسة العالمية).

الفهرس

5	الفصل الأوّل الصيف
7	مسك الإنسان
20	تنهيدة عميقة
26	الفيروس اللعين
34	خنافس مضيئة
43	غياب الجد
49	الفصل الثاني الخريف
51	أقحوان
54	أوتار العود
61	شمس الكتاب
73	بخ.. بخ
80	طلاقات خفية
89	الفصل الثالث الشتاء
91	الجرو المريض
97	فراشتان
103	بيت جديد
109	النام
117	الفصل الرابع الربيع
119	تشابك الأيدي
123	عودة الفراشات
129	نبذة عن المؤلف
131	الفهرس



اسكرايب
للنشر والتوزيع